

**THE BOOK WAS
DRENCHED**

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190110

UNIVERSAL
LIBRARY

سجدة التأليف والترجمة والنشر ١٩١٤

صَلَاحُ الدِّينِ الْيُوسُفَ وعصره

تأليف

الأستاذ محمد فريد أبو حديد



أرسطو : المعالم الأول

سلسلة المعارف العامة

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٤٦ هـ - ١٩٢٧ م

(حقوق الطبع محفوظة للجنة التأليف والترجمة والنشر)

فهرس الكتاب

صفحة

مقدمة المؤلف (ز)

الكتاب الأول

مباحث تمهيدية لتاريخ صلاح الدين الأيوبي

- (١) دعوة الاسلام ونضاله مع الأمم ١
- (٢) علاقة الاسلام بأهم أوروبا منذ القرن التاسع ٦
- (٣) صريح القسطنطينية ١٠
- (٤) لماذا لبثت أوروبا الدعوة... .. ١٩
- (أ) الانقلاب في نظام أوروبا ٢٠
- (ب) روح العصر في أوروبا ٢٤
- (٥) انتصار الصليبيين... .. ٢٩
- (٦) العالم الاسلامي يستجمع قوته للدفاع ٣١
- (٧) الدول الاسلامية بالشام والجزيرة ومصر ٣٨
- (أ) الشام والجزيرة ٣٨
- (ب) مصر ٤١

الكتاب الثاني

السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادى

صفحة

- (١) منشؤه وشبابه ٤٥
- (٢) الحملات الى مصر ٤٩
- (٣) وزارة صلاح الدين ٦٥
- (٤) انقراض الدولة العلوية الفاطمية بمصر ٦٩
- (٥) الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين ٧٣
- (٦) ثورة المصريين ٨١
- (٧) وفاة نور الدين ٨٤
- (٨) بدء العصر الثانى من حياة صلاح الدين ٨٦
- (٩) الافرنج أمام الاسكندرية ٨٨
- (١٠) استتباب الأمر لصلاح الدين فى مصر ٨٩
- (١١) حروب الشام الأولى ٩٣
- (١٢) موقف صلاح الدين أمام أسيرة نور الدين محمود ٩٨
- (١٣) فترة السلام ١٠٠
- (١٤) أعمال صلاح الدين بمصر بين سنة ١١٧٦ - ١١٨١ م (٥٧٢ - ٥٧٧ هـ) ١٠٦
- (١٥) استئناف الحروب بالشام والجزيرة ١١٦
- (١٦) آخر النضال مع الموصل ١٢١
- (١٧) الجهاد الأعظم (عرض عام) ١٢٧
- (١٨) انتقاد النيران (موقعة حطين) ١٣١

صفحة

- (١٩) توالى الفتوح بعد انتصار حطين (فتح القدس) ١٣٧
- (٢٠) حصار صور ورفعته وفتوح سنة ١١٨٨ م — سنة ٥٨٤ هـ ... ١٤٢
- (٢١) الحملة الصليبية الثالثة ١٤٥
- (٢٢) أمام عكا ١٥٤
- (٢٣) الدور الأول للحصار ١٥٧
- (٢٤) « الثانى » ١٥٩
- (٢٥) « الثالث » ١٦٧
- (٢٦) عدم انفاذ المعاهدة وقتل المسلمين بعكا ١٧١
- (٢٧) الحرب الأولى بعد حرب عكا ١٧٣
- (٢٨) الميدان الأخير ١٨٠
- (٢٩) آخر حياة صلاح الدين ١٨٦
- (٣٠) كلمة عن الرجل ١٨٩

فهرس الصور والخرائط

صفحة

١٧	 خريطة حدود دولة ملك شاه
٢٥	 صورة محارب في القرون الوسطى
٣٠	« خيالية لفتح انطاكية
٣٢	 خريطة الامارات الصليبية
٣٧	« دولة نور الدين وما جاورها
٤٦	 صورة صلاح الدين الأيوبي (خيالية)
٥٦	« لموقعة البابين...
٩٢	 باب زويلة (مثل من بناء سور القاهرة)
١٠٧	 برج في القلعة
١٠٩	 باب في قلعة صلاح الدين
١١١	 صورة باب في سور القاهرة على الشكل البوزنطى
١٤٨	« الانتكار(ريكارد ملك إنجلترا)
١٥٠	« الفرنسييس (فيليب ملك فرنسا)
١٨٥	 خريطة دولة صلاح الدين
١٨٨	 صورة قبر صلاح الدين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة المؤلف

قد رأت لجنة التأليف والترجمة والنشر أن تبدأ بسلسلة من المؤلفات في مختلف الموضوعات، وأسعدنى الحظ أن اشتركت في تلك السلسلة بوضع كتاب في تاريخ "صلاح الدين الأيوبي وعصره".

وقد حاولت أن يكون قولى فى ذلك الرجل العظيم جامعاً ما كان له من الأعمال وما امتاز به من الصفات، مراعيًا أن أجمع الى دقة التاريخ ببساطة الأسلوب، وألا أغلوفى التفصيل غلوا يذهب بملاحح الصورة التى قصصت الى رسمها من صلاح الدين وعصره، ولم أقتصر فى النظر على وجهة واحدة بل جمعت بين وجهتى نظر مؤرخى المسلمين ومؤرخى الفرنج حتى لا يكون هناك ميل فى الحكم إلا بمقدار ما تستوجبه عقيدتى التاريخية الخاصة،

فلست أعتقد أن واجب المؤرخ السرد والحكاية ، وإنما عليه واجب آخر هو المناقشة وإظهار ما يعن له من رأى .

وكان اختياري للكتابة عن حياة صلاح الدين لأنه مؤسس دولة مصرية عظيمة يمكننا أن نعدّها أولى الدول المصرية العظمى التى لا شبهة فى مصريتها . فان الدول التى سبقتها لم تكن دولا مصرية بحتة ، وذلك أن دولة الطولونيين والآخشيديين لم تكن دولة بالمعنى الصحيح ، بل كانت محاولات أولية ، ولم تكن الدولة الفاطمية بمصر دولة وطنية بالمعنى التام ، إذ جاء العاطميون فاتحين بعد أن تأسست دولتهم فى شمال أفريقيا ، وحتى بعد أن أصبحت مصر مركزا لدولتهم كان المذهب الشيعى حائلا بينها وبين المصريين من أن يندمج بعضهم فى بعض كل الاندماج ويكونوا حكومة وطنية صحيحة ، فكانت دولة صلاح الدين بمصر أول الدول الوطنية العظمى التى جعلت لمصر مكانها العالى بين دول العالم فى القرون الوسطى .

على أن لصلاح الدين مكانة فوق هذه . وذلك أنه كان البطل العظيم الذى أحرز الشرق على يديه النصر على الغرب فى ذلك النضال الهائل الذى اهتزله جميع العالم وهو النضال الدينى المعروف بالحروب الصليبية . وقد كان صلاح الدين فوق كل هذا من أعظم الأفاض

الذين ذكرهم التاريخ وأن حياة العظماء أجدر أبواب التاريخ بالبحث لما فيها من مواضع وعبر . ولما يتخللها من مواقف جليلة .

وانه ليسرني أكبر السرور أن اختارت اللجنة كتابي ليكون من رسائلها الأولى، وإني مدين لها في مراجعة الكتاب، وقد استفدت فائدة كبرى من ملاحظات لجنّتها الفنية . وكذلك يجب على أن أشكر إبراهيم أفندي جمعه الطلاب بمدرسة المعلمين العليا لقيامه برسم الخرائط التي وضعتها لإيضاح الموضوع .

ولا يفوتني أن أشكر حضرة الفاضل محمد أفندي نديم ملاحظ مطبعة دار الكتب المصرية على إظهار الكتاب بهذا النظام الجميل الذي يدل على ما حازه فن الطباعة على يديه من التقدم الباهر .

والله أسأل أن يستد خطانا في سبيل خدمة العلم والقيام بواجبنا في هذا السبيل نحو الوطن ما

محمد فريد أبو حديد

تاريخ صلاح الدين وعصره

الكتاب الأول

مباحث تمهيدية لتاريخ صلاح الدين الأيوبي

١ - دعوة الاسلام ونضاله مع الأمم

قام دين الاسلام في صحراء العرب ثم نموا وزاد حتى شمل كل الجزيرة في حياة الرسول عليه الصلاة والسلام وجعل ينشر جناحيه كي يظل بهما ما يليه من أمم الأرض من قبل المشرق والمغرب، فان دخلوا تحته راضين كانوا إخوانا وإن هم أبوا ذلك جاهدهم حتى يدخلهم في حوزة العقيدة والايمان أو يدفعوا الجزية عن يد وهم صاغرون، وكان الاسلام يرضى بتلك الخطة الأخيرة علما أنها الخطة العملية لإدخال الناس في حظيرته على طول الزمن اذا هم قاوموا الصدمة الأولى، علما منه بأن دفع الجزية والخضوع سيدفعان بعد حين الى الدخول في الدين عند ما تهدأ ثورة الإباء .

وقد وجد الاسلام من العرب عذّة واستعدادا، فجعل سيلهم بتدفق على ما جاوره من البلاد، فاجتاح فارس وهبط على ما يليه من بلاد الروم حتى أقام دولة فتية لم يشهد مثلها التاريخ إلا قليلا، فبلغت في نحو تسعين سنة اتساعا لم تبلغه دولة الروم في قرون طويلة . وكان من أسباب انتصار هذه الدولة الفتية تلك الحماسة الدينية العجيبة التي لم يذكر مثلها التاريخ لشعب آخر من الشعوب . حماسة قائمة على عقيدة كالصخرة لا يدخل اليها شك ولا يضعف من سورتها ظلم، بل كانت عقيدة حرة ثابتة . فشهد العالم نوعا جديدا من أنواع الدولة يقوم على الجهاد في سبيل العقيدة الدينية، فلا تقوى دولة من دول الأرض على الوقوف في وجهها . وكان ذلك أول عهد جديد طلع على العالم المعروف .

وسارت دولة الاسلام بعد ذلك قدما في سبيلها فهدأ تيار الفتح بعد حين وجعلت أمورها تستقر وأخذت تلتهمس المدينة من وجوها فنقلت ما نقلت عن دول سبقتها مثل فارس ومصر وأنشأت لنفسها فوق ذلك مدينة طريفة صبغت بصبغتها . حتى اذا كانت أواخر القرن السابع بعد الميلاد (النصف الأخير من القرن الأول للهجرة) صارت دولة الاسلام (دولة بنى أمية) هي دولة

العالم الكبرى وكان الى جوارها في أوروبا دولة الروم الشرقية من قبل آسيا الصغرى .

وكانت أوروبا في هذا الوقت قد طرأ عليها تغير كبير من حوادث ذات بال وقعت بها منذ أواخر القرن الخامس للميلاد — قبل الهجرة بنحو قرن ونصف — وذلك أن دولة الروم العظيمة الغربية بلغت شيخوختها وضعفت وجعلت أمم من المتوحشين تغير عليها من سهوب الشرق المجاورة لبحر قزوين وما اليه ، فما زالت تلك القبائل الممجية تصدها حتى تصدعت وتفككت وسقطت وآلت رومة العظيمة عاصمة العالم الى يد الفاتحين من قبائل القوط ومن ذلك الوقت ضاع أمر دولة الروم الغربية وتقسمت أرضها بين المغيرين فأخذت قبائل الفرنج (الفرنك) بلاد غالة (فرنسا الحالية) ، وهبط (الوندال) ثم قبائل القوط الغربية في أسبانيا حيث ظل حكمهم أكثر من قرنين الى أن أتى العرب فقاموا على أنقاض دولتهم هناك . ثم استقرت دولة القوط الشرقية في ايطاليا ، وبذلك صارت مدنية الدولة الرومانية الى تلك الأيدي الخشنة فما لبثت أن ذهب روائها وأصبحت أثرا بعد عين .

على أن العالم الغربي قد كسب شيئا وإن فقد مدنية الرومان ، وذلك أن الشعب الروماني القديم كان قد بلغ مرتبة الشيخوخة

والضعف وكان لا بدّ له من الفناء في نضال البقاء، فلما غلبت عليه تلك القبائل المتوحشة واختلطت به دخلت في دين المسيح وأدخلت على شيخوخة الشعب الرومانى فتوتها وخشوتها وبدأوتها فدخل دم الشباب من هذه القبائل الى الشعب القديم وعادت اليه قوّة حيوية كبرى وبقيت المدينة القديمة محلا للتقديس ولو أنها كانت غير مفهومة ولا مدرّكة ، وكان الدين المسيحى الذى اشترك فيه الشعبان القديم والحديث علاقة متينة زالت بواسطتها الفوارق تدريجيا حتى اذا ما أتى القرن الثامن بعد الميلاد (القرن الثانى للهجرة) كانت عوامل الاختلاط قد أنت بنتائجها وأصبح الشعب القديم غير ظاهر وحده بل صار الناس خليطا من الشعب القديم والشعوب الهمجية، وبدأت كل جهة تمتاز عن الأخرى لهجة وعادات وطبائع بحسب السنة الطبيعية لاختلاف البيئات ولهجات القبائل المختلفة، وبذلك وضع أساس أمم أوروبا الجديدة .

عظمت بعد ذلك دولة العرب فى مدّة العباسيين حتى صارت أعظم دولة فى العالم مجدا ومدنية وقوّة، ولكن انفصلت عنها أجزاء قامت منها دول فتيّة أخرى أكبرها دولة الأمويين بالأندلس يحكمها أبناء عبد الرحمن الأموى الذى هرب من العباسيين الى الغرب وعبر البحر وكوّن دولة مستقلة فى شبه جزيرة الأندلس ينافس بها

أعداء أسرته العباسيين ، وعلى هذا كان للعالم المسيحي في القرن الثامن للميلاد جبهتان يتقابل فيهما بدول الاسلام :

الجبهة الأولى الدولة الرومانية الشرقية وعاصمتها في القسطنطينية .
وهي تتأخم دولة العباسيين عند آسيا الصغرى .

والجبهة الأخرى حطام الدولة الرومانية الغربية التي استولى الهمج على أنحائها وكونوا فيها الدول الجديدة البدوية ، وكانت الدولة الاسلامية القريبة من تلك الجبهة دولة الأندلس .

على أنه قد بدأت في أوروبا في القرن الثامن للميلاد حركة ترمى الى توحيد الدول المسيحية وإعادة إنشاء دولة واحدة عظيمة شبيهة بدولة الروم الغربية القديمة .

وكان قوام تلك الدولة الجديدة شعب الفرنج تقوده أسرة من نسل البطل الفرنجي الكبير شارل مارتل صاحب الانتصار على العرب في وقعة "تور" سنة ٧٣٢ بعد الميلاد وهو الذي تعده أوروبا الغربية حاميا لها من سيل العرب الجارف الذي كان يهددها من الأندلس .

بلغت تلك الدولة شأوا كبيرا في أيام الملك شارلمان أو شارل الكبير حفيد شارل مارتل ، ويمكن أن تعتبر دولته إعادة لسيرة الدولة الرومانية القديمة مع فارق عظيم يجب ألا ينسى وهو أن تلك الدولة

البلدية كانت في الواقع دولة فرنجية أى أن قوامها كان من الفرنج .
سلالة الهمج الذين اشتركوا في هدم الدولة الرومانية الغربية منذ
ثلاثة قرون ، فكانت دولة متسعة على رأسها حكومة واحدة ويحاول
ملكها العظيم أن يجعلها شبيهة بالدولة الجليية القديمة في نظامها
وان كان لا يستطيع أن يعيد ذلك النور الذى انطفأ على يد أجداده
الغزاة الأوائل .

فبعد قرون ثلاثة من سقوط رومة استقر العالم على حال جديدة
وأصبح فيه دول ثلاث أو أربع ألا وهى دولة المسلمين ودولة
الفرنجة (الامبراطورية الغربية) والدولة الرومانية الشرقية .

نقول دول ثلاث أو أربع لأن دولة المسلمين في ذلك الوقت
كانت كما قدمنا غير متحدة ، فقد انفصلت بعض أطرافها فكانت
دولا مستقلة أكبرها دولة الأندلس ، ولهذا كانت دولة المسلمين
في الواقع دولتين كبيرتين : دولة العباسيين المشاركة ، ودولة المغاربة
بنى أمية بالأندلس .

٢ — علاقة الاسلام بأمم أوروبا منذ القرن التاسع

استقرت تلك الدول بعد ذلك الاضطراب الطويل الذى غير
وجه العالم وصارت لها فيما بينها علاقات وروابط . وتبدلت وجهة
ما بينها من العلاقة الى ما يكون عادة بين المتجاورين من علاقات

معاملة ومنافسة ومنازعة، ولعل من أكبر ما يسترعى النظر في حروب المسلمين مع من جاورهم أن لفظ الجهاد كان لا يزال مستعملاً . فلا يزال نسمع ذلك الاسم (الجهاد) يعبر به المؤرخ الاسلامي عن حروب العباسيين أمثال هرون الرشيد والمعتصم مع الدولة الرومانية الشرقية، وكذلك يتردد ذلك الاسم وهو الجهاد في وصف حروب عبد الرحمن الأوسط مع جيرانه ملوك الفرنج وأمراء القوط بجبال الأندلس . والحق أن ذلك اللفظ وهو الجهاد يجب أن يقصر على العصر الأول من غزوات المسلمين أيام كان القصد الأول من الحروب بث الدعوة الاسلامية في أنحاء الأرض، فقد كان المسلمون إذذاك أصحاب مبدأ جديد وفكرة يريدون أن تسود العالم، فكان أول شيء في نظرهم إبلاغ الناس ما عندهم من الدعوة والعمل على أخذهم بها ولو كلفهم ذلك مهجهم . فما كانوا يعبأون أيحاربون في صحارى قاحلة أم في وديان خصبة . ولا يبالون أنالهم بأس البرد أم حرّ القیظ في سبيل ما يدعون اليه . وكان العدو بعد الانتصار يصير صاحباً، له ما لهم وعليه ما عليهم اذا هو قبل دعوتهم .

وما كان لهؤلاء المجاهدين الأولين أن يفرقوا بين جنس وجنس . أو بين لون من الناس ولون . بل إنهم كانوا يغلبون العدو وهم يرون أنهم يؤدّون له أكبر خدمة بابلاغه الدعوة وتمهيد السبيل .

أمامه الى السعادة الأخروية . فكان شأنهم في ذلك شأن كل أصحاب الدعوات والمبادئ ، ولكن لقد كان للجهاد عصره ثم انقضت الروح التي كانت تدفع اليه . ثم دخلت دولة الاسلام في دور حياة مدنية وحلت في بلاد ذات مجد قديم وسارت في مواطن أقدام الأمم الغابرة وأخذت بمذنياتها تدريجاً وتكونت فيها حكومات منظمة سلكت في معاملاتها مع جيرانها سلوك من تقدمها من الدول ، فخلت العلاقات السياسية محل الحماسة الى الدعوة الاسلامية حتى لنجد هرون الرشيد خليفة المسلمين يرسل امبراطور دولة الفرنج ويهاديه ولعل ذلك كان التماساً لصداقته نكايته للدولة المتاخمة لدولته فعنى دولة الروم الشرقية . على حين نجد عبدالرحمن الأوسط بالأندلس يرسل امبراطور الدولة الرومانية الشرقية ويهاديه التماساً لصداقته ونكايته للدولة المتاخمة له وهى دولة الفرنجة . فهل اذا حارب الرشيد دولة الروم الشرقية أمكن أن نصف تلك الحرب بأنها جهاد من أجل الفكرة الدينية ؟ وهل اذا حارب عبد الرحمن الأوسط دولة الفرنجة أمكن أن نعد ذلك جهاداً بالمعنى الصحيح ونعنى به نشر دعوة الاسلام ؟ .

الحق أن الدول الاسلامية عندما تكونت واستقرت أصبحت في تعاملها مع من جاورها من الدول دولة دنيوية لها علاقات ودّية

في جانب وعدائية في جانب آخر بحسب ما تقضى به مصلحتها وأصبحت فكرة الجهاد المجرد غير حقيقية ، وانما أبقى اسم الجهاد مستعملا في وصف الحروب مع العالم المسيحي سيرا على التقاليد الأولى وإعلاء من شأن الدولة بوضعها في مكان السائر على سنن أهل الدعوة الأوائل الأجلاء، وتبريرا للحرب واستنهاضا لهمة الناس كي يبذلوا ما يرغب منهم - بذله راضين شاكرين . أما من جهة المسيحيين فانهم كانوا في حروبهم مع المسلمين الى القرن العاشر لا يحاربون لأجل نشر مبدأ ديني بل كانوا أصحاب بلاد يحاولون الدفاع عنها، وعلى ذلك لا يمكن أن تسمى حروبهم الى ذلك الوقت حروبا دينية اذ لم يكن لهم قصد من بث دعوة دينية . حقا لقد كان الفرنجة المسيحيون أحيانا يقومون بحروب دينية . ومثل تلك الحروب ما شنه شارل الكبير على ما جاور بلاده من سكسونيا الوثنية في أواخر القرن الثامن وأوائل التاسع للميلاد . ولكن تلك الحروب كانت محلية قليلة الشأن . ويمكن أن نقول بوجه الاجمال إن العالم المسيحي قبل القرن الحادى عشر لم يعرف الحرب الدينية بالمعنى الصحيح ، أو بقول آخر لم يقم بحروب صليبية لبث دعوة المسيح في أنحاء الأرض بشا منظما في دائرة واسعة كما فعل العالم الاسلامى أيام الجهاد الأول، فاذا نحن جئنا بعد ذلك الى القرن

الحادى عشر ورأينا اسم الجهاد يتردد فى أنحاء العالم الاسلامى من نهر دجلة فى العراق الى نهر دورو فى الأندلس والى جانب ذلك يتردد اسم الصليب على طول خط الحدود الفاصلة بين العالمين : العالم الاسلامى والعالم المسيحى ، اذا رأينا هذا عرفنا أن هناك شيئا جديدا وأن عاصفة قد ثارت فأعادت اسم الجهاد يهتف به من جانب المسلمين وأثارت اسم الحرب الصليبية يهتف به من جانب المسيحيين ، فما الذى أثار تلك العاصفة ؟ .

٣ - صريح القسطنطينية

فى أواخر القرن الحادى عشر وجه امبراطور الدولة الرومانية الشرقية دعوة الى البابا ليدعو أمم الغرب من فرنجة وألمان وانجليز الى نصره الصليب وتخليص بيت المقدس من أعدائه المسلمين فوجه البابا دعوته الى أوروبا فسارت فى الشعوب كما تسير النيران فى الهشيم ، وقامت أوروبا كرجل واحد الى الغرض الذى دعى اليه البابا ، فكانت حروب دموية بين الشرق والغرب استمرت ثائرة مدة قرن ثم خبا لهيبها تدريجا بعد ذلك ولو لم تنطفئ ناره جملة . فما الذى جعل امبراطور القسطنطينية يرسل تلك الدعوة ؟ وما الذى جعل البابا يقبلها رغم الحفيظة التى كانت فى قلبه على الكنيسة الشرقية ؟

وما الذى جعل أوروبا تجيب دعوة البابا بهذه الحماسة العجيبة التى بدت منها ؟ .

(١) لقد كان بين القسطنطينية وروما منذ قرون منافسة ومشاحنة

(١) عندما دب الضعف فى الدولة الرومانية شعر أباطرتها منذ القرن الثالث لليلاد بضرورة تقسيم الدولة الى أقسام لغرض حمايتها من غارات المغيرين فتقسمت الدولة فى أيام دقلديانوس الى أقسام أربعة ثم عادت بعده الى وحدتها ، فلما كانت أيام الامبراطور قسطنطين شعر بالحاجة الى تحصين الشرق ببناء العاصمة الكبرى التى تشرف على البوسفور فبنى مدينته القسطنطينية فى مكان قرية قديمة اسمها ”بوزنطة“ وجعل اقامته فيها ، وكان قسطنطين أول امبراطور مسيحى للدولة الرومانية ولعل مقامه فى القسطنطينية كان مقصودا به البعد عن رومة العاصمة القديمة ومركز الوثنية وهناك فى القسطنطينية نشأ مركز جديد قوامه الشعب اليونانى والمدنية اليونانية واللغة اليونانية . وعلى مر الأيام صارت العاصمة الجديدة تنافس العاصمة القديمة فى كل شئ ، وقد زادت تلك المنافسة عندما تقسمت الدولة الرومانية نهائيا الى قسمين : الدولة الرومانية الشرقية وعاصمتها القسطنطينية ، والدولة الرومانية الغربية وعاصمتها رومه وزاد التنافس شدة . عندما سقطت رومه فى يد البرابرة فى القرن الخامس لليلاد ، ولم يبق فيها ما يربط الشرق بالغرب ، وعند هذا بدأ البابا يظهر بنفوذه الدينى اذ أصبح هو المثل الوحيد للدينية القديمة والشعب الرومانى وأصبح معدودا خليفة القديس بطرس الرومانى ولم يكن خاضعا لسلطة امبراطور الشرق فبدأت الكنيسة الرومانية تقف موقف التحدى والكبرياء . أمام كنيسة قسطنطينية وسلطة الامبراطور الشرقى ، ثم انقلب الأمر الى خلاف وشقاق وما زال الخلاف ينوح حتى كانت بين البابا والامبراطور فى القرون السادس والسابع والثامن مواقف عاصفة على أثر خلاف فى الجدل المذهبى فكان يخيل الى من يرى ذلك أن الدين المسيحى قد شطر شطرين لا يمكن التامهما .

وها نحن نجد القسطنطينية تتناسى تلك الاحن القديمة وها نحن نرى أوروبا تدوس تلك المنافسة تحت أقدامها وسنابك خيولها ويتصاغ المسيحيون من الشرق والغرب ويتحالفون على الاسلام .

لقد كان الخلاف الذى بين شقى العالم المسيحى خلافا يكاد يمس أساس العقيدة، فكان المسيحيون فى الشرق يعتبرون المذهب الغربى خرافة على حين كان خليفة القديس بطرس فى روما (البابا) ينظر الى الشرق أنه منشق عنه خارج عليه، ولكم كان بين الاثنين مواقف عاصفة وتراشق بالألقاب، بل لقد كان بينهما تنافس حربى ومثل ذلك أن بوهمند (بيمند) بن روير جيكار الملك الزماندى على جنوب ايطاليا وصقلية عبر البحر الأدرياتي وجعل يغزو أرض الدولة الشرقية بتحريض سيده البابا صاحب ولائه .

ولكن تلك الفروق وتلك المنازعات لم تقف أمام التيار الجارف الذى اجتاح أوروبا فنسيت كل العداوات القديمة وسويت الحزون وتعانق أبناء المذهبين حتى إن بوهمند ذلك الأمير الذى غزا أرض الدولة الرومانية الشرقية صار أحد القواد البكار الذين ذهبوا الى القسطنطينية لنصرة كلمة المسيح .

أما هذا الانقلاب الذى طرأ على سياسة الدولة الشرقية وجعلها تطلب مساعدة البابا فيمكن كشفه من تتبع علاقة تلك الدولة بالدول

الاسلامية إجمالا منذ القرن الثامن للميلاد. فقد كانت الدولة العباسية في القرن الثامن للميلاد في عنفوانها فسلبت جارتها الرومانية كثيرا من أملاكها ، فلما انشغل العباسيون في مشاغلهم الداخلية أمكن دولة الروم أن تبقى ثابتة الحدود عند شرق آسيا الصغرى ، ثم مضت قوة الدولة العباسية وذهب أمثال المهدي والرشيد والمأمون وتلا ذلك استبداد جنود الأتراك بالخلافة العباسية فأخذت الدولة تضعف في نضالها الخارجي وزادها ضعفا أن انفصل عنها كثير من البلاد التي بدأت تستقل كالأغالبة والأدارسة في أفريقية وأخيرا جاءت الضربة القاسية وهي استبداد بنى بويه الشيعة بأمر الخلافة ، فأصبحوا وزراء في الاسم ولكنهم كانوا المسيطرين على الأمر كله وكان الخليفة أحيانا يحاول أن يثبت لنفسه أمرا فكان يحدث من وراء ذلك تشاحن وتنازع بينه وبين الوزير. فاضطربت أمور الدولة الاسلامية وتفرقت كلمتها وانفجر جثمانها فصار أجزاء متناثرة من أمارات في فارس وخراسان وأخرى في الشام وسواها في مصر . وهكذا وجدت الدولة الرومانية دونها فرصة سانحة فاتتهزتها وأثار أباطرتها حربا طاحنة لاسيما أيام نقفور (نيقفراس فوكاس) و (حنازيمس) (جون سيميسز) بين عامي (٩٦٠ - ٩٧٥) بعد ميلاد المسيح ، فلم يستطع أمراء الحمدانيين الذين كانوا على حدود

دولة الروم أن يثبتوا في ذلك النضال ، بل أخذتهم كئائب الدولة الرومانية بما لا قبل لهم به ، ثم فتحت سواحل الشام وعبرت جنود الروم نهر الفرات وكانت على طريق بغداد وذعر الخليفة المطيع حتى لقد باع عليه الأمير البويهى أثاث قصره ليستعدّ بثمنه للحرب . ولكن لحسن حظ دولة الاسلام رجعت عند ذلك جيوش الروم وانقضت تلك الموجة ولم تحطمها . كان هذا في القرن العاشر ثم طلع القرن الحادى عشر بحظ غير هذا . وكان الأمر ككفى ميزان اذا رجحت كفة شالت الأخرى .

في القرن الحادى عشر استولى على بغداد قوم من الترك ، وهم السلاجقة وكان أميرهم طغرل بك رجلا من أهل السنة شجاعا ، غير مأخوذ بالألقاب ، كما كان ملوك البويهيين ، فحفظ على الخليفة جلاله وهيبته ظاهرا وأخذ في يده أمر الدنيا يتحكم فيها بسيفه وإرادته فعلا وباستيلاء السلاجقة على بغداد سنة ١٠٥٥ بعد الميلاد (٤٤٧ للهجرة) دخلت الدولة الاسلامية في دور غير ذلك الدور الذى مر بها في أواخر القرن العاشر .

فقد استعادت على يدهم قوة شبابها ، وإن لم يكن ذلك فقد عاد جيشها على الأقل الى سيرة الفتح والانتصار الذى نسيت الدولة في آخر أيام بنى بويه ، وقد توالى على أمر الدولة العباسية ملوك ثلاثة

عظام من السلاجقة وهم طغرل بك واللب أرسلان وملك شاه
مايين ستنى ١٠٥٥ و ١٠٩٢ (٤٤٧ - ٤٨٥ هجرية)، وكانوا
فى سياستهم الداخلية مع الخلافة قانعين بالسلطان الدينوى الفعلى
تاركين كل مظاهر الرياسة والسيادة الاسمية للخلفاء من البيت
المبجل الذى له المكانة السامية فى قلوب المسلمين وهو بيت
بنى العباس .

وأما فى سياستهم الخارجية مع من جاورهم ، ولا سيما دولة
الروم الشرقية ، فقد كانوا لا يقنعون بسوى السيطرة والغلبة فبدأت
جيوشهم من جبال طوروس وأرضروم ، وما زالت تتحدر الى الغرب
فى وديان آسيا الصغرى وهضابها ، وهناك شهدت مدينة قيصرية
جيوشهم الغالبة ثم خضعت بلاد أرمينية والقوقاز بعد دفاع لم تستطع
الثبات عليه ثم كانت بعد ذلك موقعة (ملاذ كرد) بين أرضروم
و (وان) سنة ١٠٧٢ ، وكان هناك الانتصار الذى لا يزال يذكر
للسلطان ألب أرسلان ، وأخذ الأمبراطور الشرقى (رومانوس)
أسيرا وهو جريح بعد دفاع بطل مستميت ، وقد سار ملك شاه بن
ألب أرسلان على سنة أبيه بعد مقتله وزاد على الحرب مع الروم
حروبا أخرى مع ما يليه من البلاد ، وكان من بينها بلاد الشام التى
كانت لا تزال فيها بقية من حكم الفواطم وما كان عام ١٠٩٠ حتى

كان ملك شاه يطأ بحدوده الشرقية أكناف الصين ويدوس بحدوده الغربية عواصم الفواطم والرومان من قبل الشام وآسيا الصغرى وتكونت دولة للسلاجقة فى أحشاء هضبة الأناضول وأملى ملك شاه إرادته على من يليه وكان من بين من يرتجفون من خوفه الامبراطور الكيسوس امبراطور الدولة الرومانية الشرقية .

وكانت تلك الحروب ولا شك حروبا لا يقصد بها سوى مد السلطان والغلبة — فان السلاجقة كانوا قوما محاربين أتوا من أواسط آسيا فما زالوا يحاربون أمراء المسلمين الى أن دانت لهم بغداد ثم مازالوا يحاربون بعد ذلك من أجل فتح سائر ما يليهم من الأقاليم وكانت تلك الأقاليم التى تليهم فى أيدي الرومان على الأكثر ولو أنها كانت فى أيدي سواهم لحاربوهم ولو كانوا من أمراء المسلمين .

وقد سببت تلك الحروب كما تسبب الحروب فى كل عصر عداوة بين الجانيين المتحاربين فحدثت حوادث لا يخلو من مثلها وقت مضطرب مثل ذاك الوقت وما كانت تلك العداوة وما نشأ عنها من الحوادث لتأخذ صورة خاصة فى التاريخ لولا ما وقع بعدها من الحوادث الجليلة التى هزت العالم أجمع .

بينما كان الكيسوس يفكر فى طريق يخرج به من حرج موقفه أمام ملك شاه اذا بالموت عدا على عدوه الخيف وتمزقت بموته دولة

السلاجقة التي بناها ثلاثة من ملوكهم العظام وهناك تنفس الأمباطور وكان رجلا من رجال الدهاء والاحتياي فرأى أن ينتهز فرصة انشلام ذلك الهيكل العظيم الذى الى شرق بلاده فيحطمه ليأمن غائلته فأرسل الى فتيه فى أوروبا معودين الحرب كي يأتوا ليعيدوا له ما فقدته دولته متناسيا ما كان بين الغرب والشرق فى العالم المسيحى من منافسة وخلاف وكانت الظروف مساعدة له فرأى أن يلبس الحقائق لباسا يجعله يستفيد منها .

فصوّر المسلمين أنهم قوم أتوا الى بلاده لا يقصدون إلا حربا دينية يهدمون بها ديانة المسيح . وعزا ما ارتكبه الجنود السلاجقة من الاعتداء على المسيحيين فى الشام وآسيا الصغرى الى رغبة كمينه فى نفوسهم فى أذى النصارى . وساعد على اذاعة أمثال هذه المزاعم جماعة من المتحمسين أمثال بطرس الراهب الذى ثارت نفسه عند ما رأى قبر المسيح فى يد السلاجقة الظافرين وهم حديثو العهد بظفرهم . وهكذا سمعت أوروبا نغمة لم تطرق أذنبا من قبل : دعوة الى نصره المسيح على المعتدين المسلمين . وما هو إلا أن صرخ الكسيوس حتى أجيبته الدعوة بثورة هزت أرجاء العالم فالقد أرسل الى البابا (اربانوس الثانى) وهو فى مجلس دينى فى (كليرمون) سنة ١٠٩٥ يدعو الى نصره المسيح واسترداد بيت المقدس من

السلاجقة فما انفض ذلك المجلس حتى نادى البابا نداه التاريخي الذي دوى في أنحاء أوروبا . وانطلق المتحمسون في أنحاء البلاد يصوّرون الاسلام ظالما عاتيا مغيرا ولم تكن حكاياتهم خالية من الحقيقة ولكنها كما قدمنا كانت حوادث طبيعية في عصر ثارت فيه ثائرة الحروب بين متنافسين قديمين على أنه لم يكن أحد ليحص تلك المجج التي أوردها أمثال بطرس الراهب فثارت العاصفة هوجاء تحبط خبط عشواء .

٤ — لماذا لبت أوروبا الدعوة ؟

اذا كان الكسيوس قد تناسى ما كان بين دولته وبين الغربيين . فأعجب من ذلك أن يأتي الغرب الى مساعدته بتلك الحماسة العظيمة فالحق أن أوروبا في هذا الوقت كانت مستعدة أعظم استعدادا لايقاد النيران وكان البابا والكنيسة هما الطريقان الوحيدان الى إثارة تلك النيران وقد عرف الكسيوس أن يلمس المكان الذي فيه سر الانفجار .

كان الدين في القرن الحادى عشر سيد أوروبا وكان رجاله الدين وعلى رأسهم البابا في ذلك القرن أصحاب عواطف أهل أوروبا وكان في أوروبا في ذلك الوقت رجال يحبون الحرب

ويعيشون له ولا يسعهم إلا تلبية الداعى اليه ولا سيما اذا كان
لنصرة الدين . وذلك كله يرجع الى أسباب لا بد من بيانها موجزة
فى الفقرتين الآتيتين :

(١) الانقلاب فى نظام أوروبا

حدث انقلاب عظيم فى نظام الدولة الفرنجية فى أواخر
القرن التاسع للميلاد، وذلك أن شارل الكبير كان قد أقام دولة عظمى
تشمّل أكثر بلاد الدولة الرومانية القديمة ثم خلع البابا عليه لقب
الأباطرة وأصبح لقبه امبراطور الدولة الرومانية الغربية ، وقد
حاول شارل أن يجعل دوائه على نظام شبيه بنظام الدولة الرومانية
القديمة وأكبر ما كان يرمى اليه جعلها دولة واحدة وأن يكون
هو على رأسها ومركزها . ولقد كان تحته طائفة من الحكام والرؤساء
ولكنه عمل على أن يكونوا عمالا له مؤتمرين بأمر الحكومة المركزية
ثم سار ابنه (لويس التقي) على مثل ذلك بما استطاع ، لكنه
لم يكن كأبيه دراية وكياسة وقوة ، فها هو إلا أن مات لويس حتى
تقسمت الدولة الرومانية الغربية الى أقسام ثلاثة بين أولاده .
وبدأت بذلك أول حلقة من سلسلة تقسم لبث يحطم تلك الدولة
الى آخر القرن التاسع للميلاد .

وقد كانت أوروبا في ذلك القرن التاسع مهددة بأخطار جسيمة من تجدد اغارات القبائل المتوحشة وأكبرها عند ذلك قبائل النرماندين والمجريين زيادة على ما كان يصيبها من غزو العرب في الأندلس وصقلية وجنوب إيطاليا برا وبحرا وقد كان لهذه الغزوات أثر بعيد المدى .

كان النرمانديون يغيرون على الدولة الرومانية في خفاف السفن من مصبات الأنهار لأنهم كانوا قوما من بلاد الشمال وشواطئ البحار لهم جراءة على المحيط ودراية بتسيير السفن وكانت إغاراتهم للسلب والتدمير ولا تستطيع دولة الرومان الغربية أن تدفعهم عن نفسها إذ لم يكن فيها مدن حصينة ولا كتائب سريعة وكان المجريون في إغاراتهم فرسانا يحتاجون البلاد ثم يعودون بعد أن يسلبوا ماشاءوا ولا تردهم حصون ولا أسوار ولم يكن دونهم عند الفرنج كتائب ذات دراية بحركات الفرسان ولهذا استقر رأى أمراء الدولة الرومانية الغربية على أن يعنوا بأمرين لا غنى للدولة عنهما إذا شاءت حماية نفسها من أعدائها، وذانك هما بناء الحصون الكثيرة والأسوار على المداخن من جهة، ومن جهة أخرى تكوين كتائب للفرسان معودة الكر والفر على أسلوب سريع كي يستطيعوا دفع عادية المغيرين السريعين . وبذلك وجد أمراء الدولة أنفسهم بعد حين ولهم حصون

وأسوار تحميها كتائب من الفرسان مدرّبة خاضعة فكان لكل منهم بذلك دائرة خاصة به عليه حمايتها وله بطبيعة الأمر ادارتها فيما نظام جديد عرف فيما بعد في القرن العاشر وما يليه بنظام الاقطاع .

أحدث نظام الاقطاع نقضا في أساس الحكومة القديمة التي كانت في أوروبا منذ أيام الدولة الرومانية الأولى وذلك أن الحكومة المركزية أصبحت صورة لا حقيقة وأصبح الأمراء هم أصحاب الحكم في جميع الأنحاء وصارت العلاقة الجديدة بين طبقات المجتمع قائمة على أساس التعاقد بعد أن كانت قائمة على أساس السلطة والسيادة يعني أنه أصبح بين الأمراء من جانب وبين الحكومة المركزية من جانب آخر عقد يتعهد فيه كلا الجانبين تعهدات يقوم بأدائها نظير حقوق يكتسبها وكانت أكبر واجبات الأمراء الاشتراك في حروب الدولة بأنفسهم وفرسانهم وإمداد الحكومة المركزية بشيء من الأموال . وكانت أكبر حقوقهم أن يكونوا حكاما يخضع لهم من دونهم من الأمراء ويدفعون لهم الضرائب ويشتركون فيما يكلفهم به صاحب ولائهم من الأعمال وكان كبار الأمراء متعاقدين مع صغارهم على شروط شبيهة بتلك وهكذا كان هؤلاء مع من يليهم فكان نظام الاقطاع أشبه شيء بالهرم رأسه الحكومة المركزية وقاعدته صغار الأمراء والفرسان ثم الشعب وكان الشعب

العام مرتبطا بواجبات نحو الأمير الذى يحكم بلاده فيدفع الأموال إليه ويخضع لقضائه ويهب له مقدارا معيناً من العمل فى أرضه فى نظير حماية الأمير له من اعتداء الغير وصد غارات المتوحشين عنه . على هذا تقسمت أوروبا الى أقسام صغيرة من الاقطاعات وكانت الحكومات المركزية فى الواقع لا علاقة لها بالأفراد بل كانت علاقتها بكار الأمراء تارة على سلم وتارة على حرب .

مضى القرن العاشر وفى أوروبا دول ثلاث كبرى كل منها مقسم بحسب ذلك النظام الاقطاعى وتلك هى ألمانيا ويحكمها حكام من أمراءها بعد انقراض أسرة الفرنجة من نسل شارلمان وكانت دولتهم مكونة من ألمانيا وإيطاليا واسمها الدولة الرومانية المقدسة ، ثم فرنسا ثم إنجلترا .

ولم تكن تلك الدول دولا بالمعنى الحقيقى اذ كان الحكم السياسى لا يتعدى حكمهم اقطاعاتهم وكثيرا ما كان الأمير اذا لم يجد ميدانا للحرب يصد فيه غارات الأجانب أو المتوحشين يغير على من يليه من جيرانه ولهذا كانت أوروبا فى ذلك الوقت وما بعده مجالا لحروب لا عد لها ولا حصريين بعض الأمراء وبعض ولم تخل الحكومات المركزية من مناوأة أمراءها بل كانت تدخل فى ميادين حروبهم مؤلفة جماعة على أخرى تنصر تارة وتنهزم أخرى .

وهكذا عاد نظام الاقطاع على أوروبا بمنافع واضرار فقد ردت عنها غارات المجر والنرمان واضرابهم ولكنه نزع أمنها واطمئنانها في الداخل وجعلها بؤرة حروب دائمة .

في ذلك الوقت أتت دعوة الدولة الشرقية فما كان أسرع أمراء أوروبا وفرسائها الى الاجابة ملتهمسين هناك . ميدانا جديدا للحروب .

(ب) روح العصر في أوروبا

كان عهد الاقطاع بطبيعة ظروفه عهد الفروسية وما يتبع هذه الصفة من مميزات فكان الأمير بحكم تعاقد حامي لمن في كنفه يرى نفسه سيدهم المسئول عن سلامتهم ولو كلفه ذلك بذل نفسه . وقد جرت العادة مدة طوال السنين على تقاليد صارت على مضي الزمن مبادئ يجب على الشريف أن يسير على مقتضاها فكان من مجموع ذلك قانون به تفاصيل ما يحل للشريف أن يعمل وما يحرم عليه وكانت تلك المبادئ ترمى الى حماية الضعفاء ونصرة الدين واجلال الجمال والوداعة وسوى ذلك من صفات الحسن الذي يتجلى في المرأة فكانت الشجاعة أولى صفات الشريف لا تقوم عنها صفة أخرى وكان استخدام السيف من أول ما يجب عليه إتقانه الى جانب المهارة في ركوب الخيل وأما الرماية بالقوس والسهم فكانت مما يترك للحاربين في المحل الأدنى .



صورة محارب في القرون الوسطى

[عن كتاب ستانلي لين بول]

وقد شهد القرن العاشر تغيرا جديرا بالذكر في عقول أوروبا، إذ قد مضت أظلم القرون مع القرن التاسع وبدأت حياة جديدة تدب الى النفوس ولو أنها لم تكن تلك الحياة الفياضة التي تمشت في العروق منذ القرن الثالث عشر وقد بدأ ديب تلك الحياة يظهر بشيء من الجلاء في القرن الحادى عشر وكانت أولى علاماتها تلوح هنا وهناك إما في بلاط ملك وإما في حنايا دير.

بدأت الأمم الفتية تتطلع الى الماضى وترى أنفسهم حفدة الرومان أصحاب المدنية القديمة فجعلت تلمس العلم من بقايا مخلفاتها، ووجدت معلمين لها من رجال الدين الذين كانوا لا يزالون يحتفظون ببعض علم القدماء فانصبغت تلك النهضة الصغيرة بصبغة رجال الدين، ولما تفتحت العقول أول تفتح للعارف وجدت الميدان الذى فتح دونها مضبوغا بصبغة الدين فكانت حماسها الشبيهة بحماسة الطفولة تدفعها الى الاهتمام بكل ما يمس الدين حتى لقد ظهر أثر هذا فى آداب العصر الذى يتكوّن من قصص العهد القديم والحديث، ممثلة فى قالب روائى وكان الممثلون فى الغالب من القسوس.

ولعل ذلك العصر كان قصارى ما وصلت اليه الكنيسة من التسلط على قلوب الناس ولما يحرفهم عن عقيدتهم شيء من زيف العلم أو شك الفلسفة حتى لكان أكبر عقاب يقع على الفرد حرمانه

من الكنيسة وإخراجه من دائرة الايمان والمؤمنين وهو عقاب أذل أكبر رأس في العالم إذ ذاك وهو الامبراطور نفسه وكان ذلك الحرمان اذا وقع على إقليم تعطلت شعائر الدين فيه فلم يجد الناس من يأخذ اعتراف الميت ولا من يقرأ عليه الصلوات التي توصله الى الآخرة وكان مثل ذلك العقاب كافيا لارغام أكثر الأمراء عنادا واذلال أحدهم شوكة. وكانت الكنيسة اذا فرضت على الناس فرضا يكفرون به عن ذنوبهم لم يسعهم إلا الازعان فيصوم الفرد أو يضرب أو يذل نفسه بالسؤال أو يشهر به ويخرج من بلده في زى النادم "قبعة خاصة وعصا طويلة وأقدام عارية" فيذهب الى بيت المقدس أو الى روما ليمحو ذنوبه .

وقد كانت الكنيسة عاملا من العوامل الفعالة طول القرون الوسطى^(١) وزاد نفوذها في العصر الاقطاعي إذ كانت هي المحكمة في منازعات المتنازعين ترأب الصدوع وتداوى الجروح وتجعل للناس قواعد لحرامهم وحلالهم في الحرب تحاول بذلك تخفيف ويلاتها . وكانت سلطتها لا تقف عند حد إقطاعي ولا دولة معينة

(١) القرون الوسطى اصطلاح تاريخي يقصد به الفترة بين سقوط مدينة رومة في أيدي البرابرة سنة ٤٧٦ ليلاد وبين بدء التاريخ الحديث الذي يوضع حده عند سقوط القسطنطينية في يد الأتراك العثمانيين سنة ١٤٥٣ ليلاد .

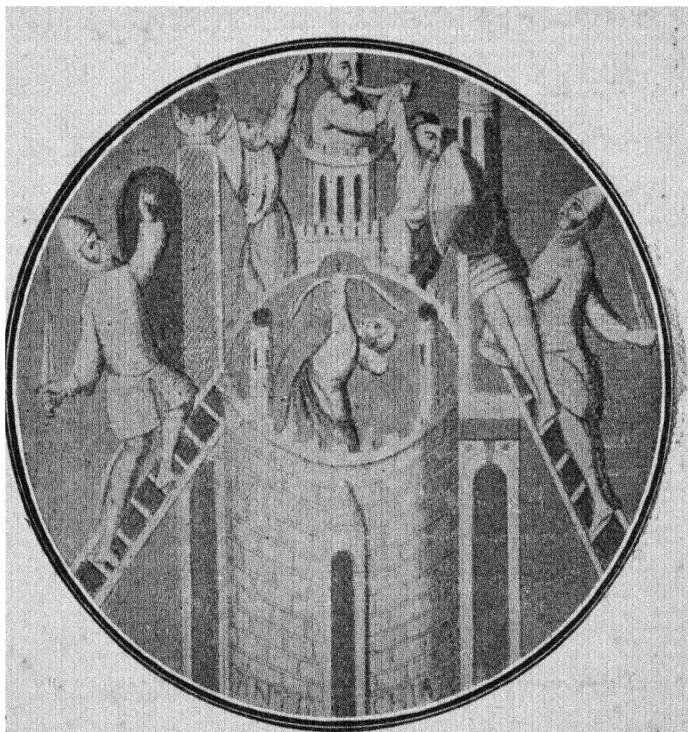
بل تشمل جميع أتباع المسيح المؤمنين بها في وقت لم يكن هناك مركز سياسى قوى لانفراد كل أمير باقطاعه مستقلا بأمره — وعلى ذلك كان سلطان الكنيسة هو السلطان العام الوحيد الذى يشمل جميع أنحاء أوروبا .

وقد اتفق فى أواخر القرن الحادى عشر حدوث نضال كبير بين الامبراطورية (السلطة الدينيوية) وبين الكنيسة (السلطة الدينية) . وكانت نتيجة ذلك النضال انتصارا باهرا للبابا وذهب الامبراطور العظيم وهو اذ ذاك ” هنرى الرابع “ الى البابا ” جريجوار السابع “ فى قرية ” كانوسا “ بايطاليا وهناك وقف حاكم الدنيا أيا ما ثلاثة عند باب رئيس الكنيسة عارى الرأس حافى الأقدام يطلب العفو والصلح .

وعقب ذلك بسنين قليلة كان البابا ” أربانوس “ فى مجمع من رجال الكنيسة فى ” كلرمون “ فأتاه صرينخ امبراطور الدولة الشرقية يدعو له للمساعدة فى حرب المسلمين . فما انفض ذلك المجلس سنة ١٠٩٥ م حتى كان البابا قد أعلن حربا لنصرة المسيح والصليب على المسلمين واستنقاذ بيت المقدس منهم فأية صيحة تكون صيحة البابا فى مثل هذا العصر؟ لقد كانت صيحة ترددت كالرعد القاصف . وسارع الى تليتها شعب مؤمن مطيع على رأسه طائفة من الأمراء الذين لهم دراية بالحروب وبهم غيرة على الدين ورغبة فى نصرته .

٥ - انتصار الصليبيين

بدأت الحرب الصليبية فذهبت جموع بعد جموع في سنة ١٠٩٦
 (٤٨٩ هجرية) ولكنها لم تتم شيئا ثم تبعتها جموع أخرى في سنة ١٠٩٧
 بقيادة أربعة من كبار أمراء أوروبا وهم (جودفري) حاكم بولوني
 و (ريمون كونت طولوشه) و (بالدوين) أخو (جودفري) و (بوهمند)
 ابن (روبير جيكار) الزماندى حاكم جنوب إيطاليا وصقلية . وكان
 يساعدهم آخرون من الأشراف والفرسان فلما بلغت الحملة
 القسطنطينية استوثق الامبراطور الكسيوس من حلفائه أنهم يريدون
 اليه ما سلبه الاسلام من بلاده ثم سمح لهم أن يجتازوا بأرضه فساروا
 وعبروا المضائق وهزموا المسلمين فى الأناضول وكانوا أشتانا بعد
 ذهاب ملوكهم الكبار وكان أكبر انتصار للصليبيين عند (دور يليوم)
 أو (اسكيشير) فى غرب آسيا الصغرى ثم ما زال النصر لهم الى أن
 أتموا السير وبلغوا الشام وأقاموا دولا أربعة اقتطعوها من أرض
 الاسلام وهى (الرها) و (أنطاكية) و (طرابلس) و (بيت المقدس)
 وجعلوا الملك فى يد حاكم بيت المقدس وهو (جودفري) وقنع
 الباقون من الأمراء بالولاء له حب النظام الاقطاعى فى أوروبا
 وجعلوا نظام الحكم فى تلك البلاد على الأسلوب الاقطاعى وتم
 ما أرادته أوروبا وردت موجة الفتح الاسلامى عن أسوار القسطنطينية



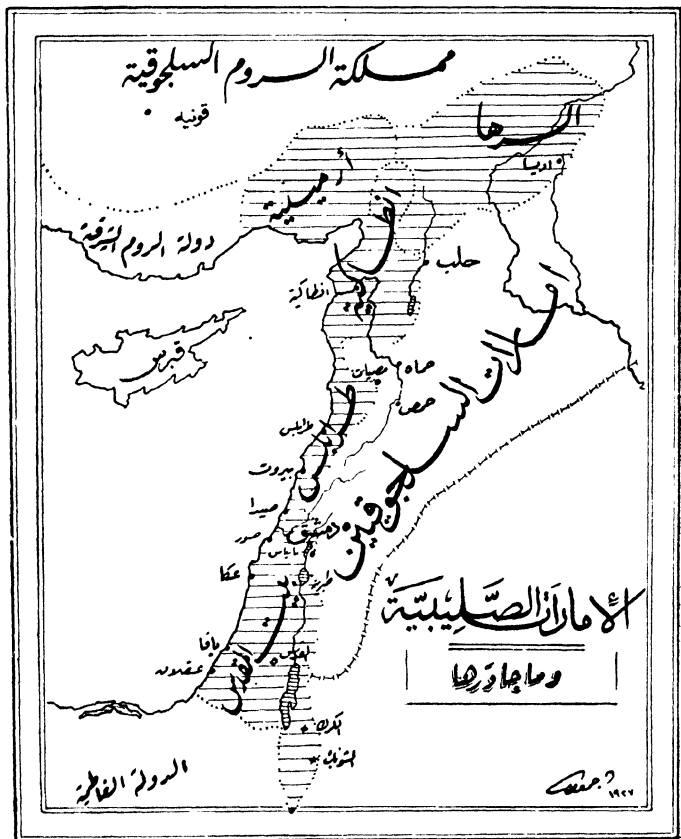
صورة خيالية لفتح أنطاكية

بتلك الضربة الشديدة ولن تعود الدول الاسلامية الى محاولة فتحها من جديد إلا بعد أن تفيق منها وذلك بعد نيف وثلاثة قرون على يد الأتراك العثمانيين .

٦ — العالم الاسلامى يستجمع قوته للدفاع

كان العالم الاسلامى فى ذلك العصر أى أواخر القرن الحادى عشر وأوائل القرن الثانى عشر يشمل أقساما ثلاثة كبرى ولكل منها فروع وأجزاء ففى طرفه الغربى كانت دولة الأندلس وقد عبرت اليها جموع المرابطين من أفريقيا فهزمت المسيحيين الأندلسيين وأعادت اليها شيئا يشبه ما كانت عليه من القوة أيام دولة بنى أمية وبعد المرابطين يأتى اليها الموحدون من افريقيا فيرفعون علمها الى أواخر القرن الثانى عشر ثم تنحطم تلك الدولة حتى لا يبقى منها إلا غرناطة لتشهد تاريخ القرون التالية .

وكان فى افريقيا الشمالية من الغرب دول يرتبط تاريخها بتاريخ دولتى المرابطين والموحدين . وأما فى الشرق فكانت دولة العبيدين أو الفاطميين وقد بقيت هناك الى أواخر القرن الثانى عشر حتى قضى عليها البطل الكبير يوسف بن أيوب صلاح الدين كما سيأتى وكان فى شرق هذه البلاد رقعة الدولة العباسية مقسمة بين أمراء



خريطة الامارات الصليبية

السلاجقة بعضهم من نسل ملك شاه وبعضهم من نسل قواده ورجاله وكان للخلافة على هؤلاء سيادة اسمية لا تكاد تعدو السكة (النقود) والخطبة فى المساجد ولم تكن بين دول الاسلام رابطة متينة بل ان اثنتين منها كانت على خلاف ومنافسة بل على عداوة وهاتان هما الدولة العباسية والدولة الفاطمية فان الاولى كانت دولة سنية والاخيرة كانت شيعية ولكل من الدولتين خليفة يرى نفسه احق بأن يدعى له على المنابر جميعها فكان من الطبيعى أن العالم الاسلامى عند ما صدمته الحروب الصليبية فى أواخر القرن الحادى عشر لم يكن متماسكا بل كان مقسما الى دول متنافسة ولم تكن الدولة العباسية فى ذاتها دولة بالمعنى الصحيح بل كانت مقسمة الى إمارات كل منها مستقل بأمره لا تربط بينها إلا جامعة اسمية لا حقيقة لها وكانت الدولة العباسية هى التى قابلت الصدمة فلم تقو على احتمالها ثابتة بل تصدعت وتداعت وخيل للناس أن قد هوت وضاع أمرها ولم تجد لها نصيرا لا من داخلها إذ كانت كلمتها مفرقة ولا من خارجها إذ كان الفواطم أقرب الى الشماتة بها . وكان أهل أفريقيا والأندلس فى شغل بأمرهم عن أن يمدوا مساعدة لأحد آخر وزد على ذلك بعد الشقة وقلة الارتباط . ولكن ذلك التصدع لم يكن إلا ظاهرا فان الدولة الاسلامية مالت

أمام الموجة القوية ولم تكن هزيمتها انكسارا . بل ان العقيدة لم تنزعزع في وقت من أوقات تلك المحنة ولم يكن في الناس شك من أمرهم بل ظل في نفوسهم إيمان صادق ان مآل تلك الموجة التي أتت من وراء البحر الى الضعف وأنه لابد من الانتصار عليها وردّها من حيث جاءت بعد حين . وقد ظهرت هذه العقيدة في كثير من الوجوه فما كادت الأمة تفيق من الصدمة الأولى حتى أخذ رجالها يعملون على إظهار تلك العقيدة الكامنة . وكان أول من أظهرها أتابك عماد الدين زنكي صاحب الموصل إذ استولى على أمانة (الرها) في عام ١١٤٤م — ٥٣٩هـ . بعد أن هزم الصليبيين .

(١) هو ابن أحد أمراء العسكر تحت ملك شاه وهو آقسقر . وقد أظهر عماد الدين بعد موت أبيه شيئا كثيرا من الشجاعة والأقدام حتى أن السلطان محمود السلجوقي أقطع واسط (سنة ١١٢٢م الموافقة لسنة ٥١٦هـ) ثم أقطع الموصل والجزيرة وأعطى لقب « اتابك » ومعناه الأمير الحاكم وكانت أيامه كلها اضطراب من جميع النواحي لضعف الحكومة العباسية واضمحلال أمر حماهم سلاطين السلاجقة ولهذا كان نفوذ أمراء النواحي بالغا أعظمه وكانت نتيجة هذا أن زاد أمر الصليبيين وعظم بلاؤهم فيما يليهم من بلاد الاسلام فتجدد عماد الدين الى إعداد العدة لحربهم وكان أول نصر أعلی من شأنه فتح حلب وقد تحاشى الدخول في المنازعات الكثيرة التي كانت لا تنقطع فيما بين أمراء السلاجقة من جهة وبين السلاجقة والخليفة من جهة أخرى . بل جعل كل همهم مكافأة الفرنج بالشام ففتح منهم فتوحا ثم توج كل أعماله بفتح الرها (اذاسه) (١١٤٤م — ٥٣٩هـ) وكان لسقوطها في يده دوى عظيم في أوروبا اهتزت له شعوبها وجهزت عقب ذلك حملة كبرى تعرف بالحرب الصليبية الثانية .

فزعت أوروبا. عند ذلك وجدت الكنائس لاسترداد ما فقدته الصليب ولكن الذى ينعم النظر فى تلك الحرب الثانية لا يسعه إلا أن يلاحظ أن الحماسة الدينية قد خبت قليلا فى قلوب أهل أوروبا . وقد عجزت كنائس المسيحيين عن استرداد الرها مع اشتراك اثنين من كبار الملوك المسيحيين فى الحرب وهما الامبراطور كنراد الثالث عاهل الدولة الرومانية المقدسة ولويس السابع ملك فرنسا وقد استمرت الدولة الاسلامية على محاولتها الأولى تسعى للخلاص من الأغراب الذين أخذوا بعض بلادها الى أن ظهر رجل الجهاد الأكبر وهو نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى فجعل حياته لظهار عقيدة الأمة الاسلامية فى النصر ظهورا واضحا^(١) .

وكان صلاح الدين يوسف بن أيوب أحد رجال هذا الأمير العظيم وسيفا من سيوفه . وليس بعجيب فى التاريخ أن ينشأ رجل

(١) مات عماد الدين زنكى شهيدا بعد أن فتح كثيرا من بلاد الفرنج وذلك أنه قتل فى نومه - قتله جماعة من مماليكه بخرىض أعدائه وكان من خير أمراء المسلمين سيرة وعدلا واصلاحا لموارد الثروة والتماس سبل الخير للناس . هذا عدا تعضيده للعلم والادب . فلما توفى ترك أولادا أربعة أكبرهم سيف الدين غازى . وثانيهم نور الدين محمود وقد استولى الأول على الموصل والجزيرة وورث الثانى إمارة حلب . وكان ابنه نور الدين جنديا شجاعا وهو فى الوقت نفسه فقيها عالما وكان بحكم وجوده فى حلب أقرب الى حدود الفرنج ولهذا كان هو صاحب حروبهم . وقد قابل نور الدين =

تابعا لعظيم ثم يعلوا شأنه ويظهر أمره حتى يغطى ذكره على ذكر سيده ويصبح المجد والعظمة للتابع دون المتبوع .

== صدمة الحرب الثانية التي أثارتها أوروبا لاسترداد أذاسه حتى اذا ما انقضت موجتها وخبث نارها عاد الى سيرة أبيه فبدأ يغير على الامارات الصليبية وكانت وطأته في حروبه أشد من وطأة أبيه ونصره أكثر اطرادا . وقد فكر في أخذ دمشق لكي يضمها الى دولته فتكون قوة له في حربه ضد الفرنج وحانت له فرصة رضى أهلها بالانضمام الى دولته فدخلها بغير حرب وسط تهليل الناس وأعطاه الخليفة لقب (الملك العادل) عقب ذلك الفتح (سنة ١١٥٤ م — ٥٤٩ هـ) وما زال أمره بعد ذلك في نمو حتى أرسل الحملة الى مصر (سنة ١١٦٤ — ٥٥٩ هـ) .

٧ — الدول الإسلامية بالشام والجزيرة ومصر

(١) الشام والجزيرة

قتل عماد الدين زنكى وهو فى ميدان الحرب وبعد مقتله تقسمت دولته بين ابنه وأولها سيف الدين غازى الذى استولى على الشرق وجعل مقره الموصل . وثانيهما نور الدين محمود الذى استولى على الغرب وجعل مقره حلب ، على أن نور الدين هو الذى سار على سنة أبيه وقد عاش مدة أطول من أخيه ولهذا تمكن من بسط سلطانه على البلاد التى ورثها أبوه الشهيد عماد الدين واستولى على غيرها مما فتحه من أملاك المسلمين المستقلين أمثال دمشق وبلبك ومما فتحه من أملاك المسيحيين بعد أن فشلوا فى حملتهم الثانية التى اشترك فيها كنراد الثالث امبراطور الدولة الرومانية المقدسة ولويس السابع ملك فرنسا .

وقد كانت سياسة نور الدين فى فتح البلاد التى بيد أمراء من المسلمين أن يمتنع بدخول الاقليم فى دائرة دولته — لا يريد من وراء ذلك زيادة فى الملك والثروة بل كان كل قصده أن يجعل تحت سلطته دولة قوية يستطيع أن يصدم بها الصليبيين صدمة قوية

تصدع أركان دولتهم فانه قد جعل قصد حياته الجهاد وإخراج
المسيحيين من بلاد الشام وكان قوى الايمان بما هو فيه من عمل
ينظر الى حروبه نظرة شبيهة بنظرة المسلمين السابقين فى أول
الاسلام الى حروبهم مع أعدائهم ولا أدل على ذلك من أن أخاه
فقد عيناه فى موقعة إذ أصابه فيها سهم . فقال له معزيا « لو كشف
لك عن الأجر الذى أعد لك لتميت ذهاب الأخرى » فكان ذلك
الرجل المجاهد لا يتطلع إلا الى جمع الدولة الإسلامية تحت يده
لتكون له قوة على الجهاد . فكان اذا فتح حصنا اسلاميا سلك أحد
مسلكين : فاما أقر عليها حاكمه الأول اذا اطمأن اليه وعرف
أنه يقدر على الدفاع عنه والبقاء الى جانبه وإما أن يقطع ذلك
الحاكم أرضا بدلا عن حصنه ويضمه الى بلاده وقد كان اذا أعطى
بدلا أبزل فى عطائه كما يرضى المحروم وأمثلة هذا كثيرة، منها أنه
عندما استولى على قلعة (جمبر) وهى حصن منيع على الشاطئ
الشرقى للفرات الأعلى أعطى صاحبها شهاب الدين العقيلي اقطاعا
عظيما بدلا قرب (حلب) ومقدارا من المال (نحو عشرين ألف
دينار) وما كان فى تلك القلعة من غنى ينتظره أو مال يحصله إلا
أنها موقع حربى ينفعه فى غرضه ويمكن أن نصف دولة نور الدين
بأنها كانت دولة إقطاعية على نسق الاقطاع فى أوروبا فقد كان

العصر عصر إقطاع في الشرق والغرب على السواء . وكان هو رئيس تلك الدولة الأعلى وتحت أمره عدد كبير من الأمراء كل في جهته يحكم مستقلا على أن يكون هو وجنوده في حروبه . ومما يسترعى النظر في تلك الدولة كثرة القلاع الحصينة والقصور المنيعة المبعثرة في السهل وعلى قمم الجبال . ولعل الأسباب التي دعت الى بناء تلك القلاع في الغرب في أوروبا هي نفسها التي دعت الى بناء مثلها في الشرق الاسلامي فقد كانت الحكومات المركزية في ذلك الوقت مزعزعة . وكانت الاغارات كثيرة لا حصر لها بين ترك يغيرون من الشرق ومسيحيين يغيرون من الغرب وفرق دينية (كالشيعة الاسماعيلية^(١)) تهبط بين حين وحين كالعاصفة المخربة — ولهذا كانت حاجة الشرق الى القلاع والفرسان مثل حاجة الغرب على السواء . ونشأ من هذه الحاجة نظام اقطاعي كما نشأ في أوروبا لنفس الأسباب .

(١) مذهب الشيعة في أصله مذهب سياسي يرمي الى تفضيل بيت الرسول في وراثة الدولة الاسلامية واذا قيل بيت الرسول فانما يقصد به نسل علي من فاطمة زوجه ابنة النبي عليه الصلاة والسلام — ولكن الشيعة ساروا على مناهج خاصة فيما بعد في تعبدهم حتى لقد اتخذت مذهباً دينياً خاصاً وبذلك صارت الشيعة فرقة دينية سياسية في آن واحد . ثم غلا أصحاب هذا المبدأ فأدخلوا على مناهجهم كثيراً من البدع والرسوم من مذاهب غير المسلمين واتخذ جماعة من الثوار على الدولة الإسلامية مذهب الشيعة وفكرتها وسيلة =

(ب) مصر

أما في مصر فكانت دولة أخرى تختلف ما في الشام والجزيرة . في وجوه كثيرة — فقد كانت دولة الفواطم وهم شيعة علويون لهم خليفة غير خليفة السنين وحكومة مستقلة موحدة . ومدنية تالدة . خلفها مؤسسو الدولة منذ قرنين .

وكانت مصر في القرن الثاني عشر ميدانا لحوادث عظيمة كان لها أثر كبير في مصير العالم الاسلامي . كان شعب مصر الهادئ .

= يصلون بها الى اغراضهم في الهدم ومن هؤلاء مؤسس فرقة الاسماعيلية وهو الحسن ابن صباح (والاسماعيلية نسبة الى اسماعيل بن جعفر الصادق أحد الأئمة من نسل علي) كان الحسن بن صباح رفيقا في الصبا لنظام الملك الذي صار وزير السلطان السلجوقي العظيم ملك شاه . وقد عجز عن أن يبلغ مأربه من السيادة في تلك الدولة فلجأ الى الهدم فأسس فرقة غرضها القتل والفوضى وكان أفرادها يدعون لمذهب الشيعة — وقد اتصل بالفاطميين بمصر وهم من الشيعة الاسماعيلية كذلك وجعل يدعوهم بنفسه ورجاله الذين انضموا اليه وكان من بينهم جماعة يطيعون طاعة عمياء ويسمون الفدائيين وهم الذين يقومون بأعمال القتل التي يأمر بها رئيسهم وكانوا يلقبونه «بالسيد» و«سيدنا» «وشيوخ الجبل» وكان نظام هذه الطائفة سرىا عجيبا نسجت على منواله الجمعيات السرية في بلاد أوروبا وآسيا ، وقد نجح ابن صباح في الاستيلاء على قلعة (الموت) الحصينة . ويطلق عليها «وكر العقاب» في جبال ما زندران بفارس . وهذه الجمعية هي التي قتلت نظام الملك . رفيق ابن صباح القديم ، وكان لها أثر كبير في تلك العصور اذ قتل على يد الفدائيين عدد كبير من أمثال الرجال وعجز عن القضاء عليها كبار القواد مثل ملك شاه وصلاح الدين فبقيت الى أن قضى عليها أخيرا سيل التار الجارف .

المنصرف الى أعماله تاركا الحكم الى حكامه الذين استولوا على البلاد عنوة منذ أيام المعز لدين الله في أواخر القرن العاشر للميلاد . وكان المصريون من أهل السنة ولكنهم خضعوا لتلك الدولة الشيعية وانصرفوا الى أعمالهم لا يهتمون بشيء من أمر الدولة اذ كانت الحكومة على وجه الاجمال لا تتدخل كثيرا في عقائدهم .

وقد حدث على مر الأيام شيء عظيم من التفاهم بين الحاكم والمحكوم حتى كادت الشيعية المصرية تكون سنية إلا في بعض المظاهر والرسوم . ولكن هدوء تلك البلاد لم يبق كما كان بل حدث تغير في القرن الثاني عشر عند ما ذهب أجيال الخلفاء العظام من الفواطم ووقع الأمر الى سلسلة متأخرة من خلفاء لا حول لهم ولا قوة فصار الحكم الى قواد الجيش والوزراء من عز منهم غلب واستولى على الخليفة . وكان الخليفة في العادة يختار طفلا من البيت الفاطمي فكان بعضهم لا يعدو سن الرابعة كالفائز بنصر الله الذي حكم بين سنتي (١١٥٤ - ١١٦٠) من الميلاد (٥٥٤٩ - ٥٥٥٥هـ) وجاء بعده العاضد لدين الله وكان في التاسعة من عمره عند ما صار خليفة بمصر .

في أثناء ذلك العصر كان نور الدين قد هزم الفرنج ووجد دولة عظيمة في الشام والحزيرة . وكان من بين الوزراء بمصر من

طمع أن يجعل صلة بين دولة نور الدين وبين مصر وذلك هو الرجل العاقل الصالح ابن رزيك لولا أن اختلاف المذهب الديني كان حائلا لا يمكن تجاوزه .

وكان الصليبيون يعرفون أن مصر بلاد غنية وأنها اسهل فتحا من قلاع الشام وليس بها أمثال نور الدين وجنوده . وكانوا يتطلعون الى أن يقيموا ضعفهم بضمها الى ملكهم ولولا خشية نور الدين أن يهوى على بلادهم في أثناء محاولتهم ذلك الفتح لبدءوا به منذ أخفقوا في الاستيلاء على دمشق واسترجاع الرها في حربهم الثانية في منتصف القرن الثاني عشر .

ولقد جرت بمصر حوادث وأراد القائمون بها الانتفاع بالموقف السياسى الذى حوهم ، فكانت النتيجة الطبيعية تنافسا بين الدولتين المجاورتين على أيهما تدخل تلك البلاد وتسود فيها وتأنك الدولتان هما دولة نور الدين ودولة الصليبيين .

ساد على مصر فى سنة ١١٦٤ (٥٦١ هـ) رجل من العرب . اسمه شاور واستبد بأمرها بعد أن قتل العادل رزيك بن الصالح رزيك الوزير الكبير . وقد نازعه فى الأمر أمير عربى آخر من قبيلة نخلم من بلاد الصعيد واسمه ضرغام ، وكان آخر النضال بين الزعيمين . أن هرب شاور يلتمس مساعدة من الخارج على خصمه فذهب .

الى نور الدين وعرض عليه شروطا مغرية اذا هو اعانه على استرجاع
 أمره بمصر ، وكان نور الدين يتطلع الى التدخل في تلك البلاد
 فستحت له تلك الفرصة . وكانت شروط شاور أن يعطى لنور الدين
 نفقات الحملة وثلاث ايراد مصر جزية سنوية . وقد ساعدت
 الظروف على أن يسرع نور الدين باجابة شاور الى ما سأل لأن
 ضرغام منذ أحس بسعى شاور أخذ هو من جانبه طريقا آخر يزعم
 فيه سلامته فأرسل يستعين بالدولة الأخرى دولة الفرنج بالشام فلم
 يتردد نور الدين بعد ذلك بل أرسل جيشا مع شاور وجعل عليه
 مقدم جيشه أسد الدين شيركوه بن شادى وجعل معه الشاب الممتاز
 يوسف بن أخيه أيوب بن شادى .

الكتاب الثاني

السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادى

١ - منشؤه وشبابه

يحيط جو من الأبهام حول نشأة يوسف بن أيوب ونسبه وذلك شأن كل رجل ينبغ من صفوف العامة فيبلغ أقصى ذرى العظمة وقد حاول بعض من كتبوا عنه أن ينسبوه الى أسرة عربية وعرق شريف ولا يسع الانسان إلا أن يبسم عندما يرى أمثال هؤلاء المتحمسين من الكتاب يوصلون نسبه الى معد بن عدنان بل الى آدم عليه السلام .

على أنه لا يغض من قدره أننا لانستطيع أن نتعدى في نسبته الجذ الأول فهو يوسف بن أيوب بن شادى وليس بعد شادى من الأسماء ما نقدر على التثبت منه .

كان أبوه وأهله من قرية (دوين) فى شرق اذربيجان . وهم من بطن (الروادية) من قبيلة (الهدانية) وهى قبيلة كبيرة من قبائل



صورة صلاح الدين الأيوبي (خيالية)

الأكراد ويظهر أن جدّه شادى نزع بولديه أيوب (نجم الدين) وشيركوه (أسد الدين) الى بغداد ثم نزل بتكريت حيث مات شادى . وقد نشأ الأخوان بعد ذلك والتحقا فى خدمة متولى الشحنة بالعراق (مجاهد الدين بهروز) الذى كان متوليا من قبل السلطان مسعود بن غياث الدين محمد بن ملك شاه السلجوقى . ثم انتقل نجم الدين أيوب الى خدمة عماد الدين زنكى صاحب الموصل أول أبطال دول الاسلال الجديدة وصار حافظ قلعة بعلبك أو (دزدارها) فلما قتل زنكى انتقل نجم الدين الى خدمة صاحب دمشق والتحق أسد الدين أخوه بخدمة نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى وهو إذذاك صاحب حلب ورثها حظه من دولة أبيه بعد موته وكان له أخ ورث نصيبه الموصل ومايلها وهو سيف الدين غازى بن زنكى . وفى أثناء تلك الحوادث ولد لنجم الدين ولد سماه يوسف ولعل ولادته كانت فى ليلة خروج أبيه من تكريت الى خدمة عماد الدين زنكى وذلك حوالى ١١٣٨ للميلاد (٥٣٢ هـ) . وقد نشأ فى كنف أبيه بدمشق وظل أبوه هناك الى أن أوغل نور الدين بفتوحه الى الجنوب واستولى على دمشق فانضم الى خدمته وكان اذذاك يوسف قد ترعرع وصار فى فى السادسة عشرة من عمره فدخل فى خدمة نور الدين مع أبيه وعمه . وكانت مخايل النجابة ظاهرة عليه .

فكان نور الدين يؤثره ويقتربه ويلوح أن الفتى كان حادّ الذكاء ، له عقل ناقد فأدرك ما في طبع سيده من كرم وعلو وشهامة وجعل يأخذ نفسه بما أعجبه من صفاته .

على أننا لا نتكر أننا لسنا نقدر أن نعرف عن شباب صلاح الدين شيئاً كثيراً ولا غرابة في ذلك فقد كان أحد صغار الملحقين بالجيش فلم يكن دونه مجال للعمل والظهور الى جانب الكبار من قواد الجيش وشجعانه وكان جيش نور الدين في هذا الوقت يحوى جماعة كبيرة من المبرزين الشجعان . وليس يذكر لنا صلاح الدين شيئاً عن شبابه إلا أنه كان يترحم عليه ويحن اليه وذلك أمر طبيعي لكل كبير السن اذا نظر الى الشيب وعجزه . وأما غير ذلك فلانسمع السلطان فيما بعد يذكر عن أعماله شيئاً في وقت صغره ويمكن أن نعزو هذا الى حسن بصره وتواضعه فأكبر الظن أنه يابى أن يذكر لنفسه شيئاً في وقت كان فيه صغيراً بين كبار يحملهم ويعرف لهم فضلهم ، وأول ما يذكره التاريخ عن شباب يوسف بن أيوب وقت اشتراكه في الحملة على مصر مع عمه أسد الدين شيركوه .

ولانملك النفس عن ذكر حقيقة نراها قد تساعد على أن تظهر لنا صورة ذلك الرجل قريبة من الوضوح وذلك أنه قد كان في شبابه يسيم سرح اللهو حيث يسيم أمثاله من الفتيان . فانه تاب .

عن الخمر وغير ذلك من اللهو وهو في مصر بعد أن حمل عبء الوزارة وصار من رجال الأمر نخلع عنه ما لا يليق به في مكائته الجديدة وهل من الغريب ألا يكون الشباب معصوما ؟ وهل ينقص من الرجل أنه كان يتذوق اللهو حلوا في جهله وسورة شبابه فاذا هو شعر بالواجب وثقله رمى عن نفسه لهوها وفرغ الى واجبه يتذوق حلاوة القيام به بنفس الهزة التي كان يشعربها في لهوه ؟ على أنه بقى الى آخر حياته محتفظا بالميل الى لذات أخرى لا عار من أن يلذها الرجل فقد كان منذ شبابه مغرما بالصيد صيد الطباء في الصحراء وسماع الأدب الطريف في المجالس الحافلة بالأصدقاء أو بالعلماء وأهل الفضل .

وكان أول عهده بالعمل الجدى خروجه الى مصر في صحبة عمه أسد الدين شيركوه في سنة ١١٦٤ للميلاد (٥٥٩ هـ) وسنه نحو ست وعشرين سنة .

٢ - الجمالات الى مصر

ذهبت الحملة الأولى الى مصر لمساعدة شاور في أبريل سنة ١١٦٤ م (٥٥٩ هـ) وهزم الجنود الأتراك الذين مع شيركوه جيش ضرغام عند بليس وسارت الجنود المنصورة الى القاهرة .

وهناك وجد ضرغام نفسه مخذولا وليس حوله من يثق به أو يركن إليه وتخلي عنه الخليفة الذي كان لا يثبت في جانب وزير مقهور وله في ذلك العذر اذ لقد كان الوزراء أيام قدرتهم لا يراعون له حقا بل يجعلونه أشبه شيء بالأسير في قصره . وكانت آخره ضرغام على يد شعب القاهرة اذ ثار به فاحترأ رأسه قرب مشهد السيدة نفيسة وتم النصر لساور منافسه .

على أن شاور بعد ذلك رأى الأمر قد تم كما أحب فلم تعد به حاجة الى حلفائه شيركوه ومن معه وكان قد احتاط لنفسه فجعل جيش شيركوه خارج القاهرة قرب النيل — ولم يتحرك الى الوفاء بما كان قد تعهد به لنور الدين فبدأت مشادة بينه وبين حلفائه السابقين أدت الى أن أنفذ شيركوه بن أخيه صلاح الدين الى بلبس كي ينزعها لتكون هي وإقليم الشرقية في يده رهنا فأرسل شاور الى (امرى) ملك بيت المقدس (امريك) يطلب مساعدته على جيش نور الدين وكان (امرى) لا يستطيع أن يرفض ذلك الطلب اذ كان يتطلع الى امتلاك مصر لا يمنعه إلا خوف نور الدين فلما بلغته دعوة شاور ضمن أن يكون المصريون الى جانبه فأقدم . وهكذا كان شاور يلعب بالنار التي ستحرقه .

بقى الجيشان الأجنبيان يتطاحنان قرب بلبس وكان نور الدين في أثناء ذلك يهوى بجنوده على أملاك الصليبيين بالشام ففتح قلعة (حارم) الى غرب (حلب) وبهذا صارت انطاكية مهددة باغاراته ثم جد في حصار حصن (بانياس) بقرب دمشق فكان على (املريك) أن يعود قبل أن يتسع الخرق وكان شيركوه لا يعلم بذلك الانتصار الذي أحرزه نور الدين وكانت جيوشه تحارب على قلة من المؤونة ولم يكن له عند بلبس حلفاء يساعدهونه ولا حصن يتمتع فيه ولهذا سره أن يفتاحه الفرنج بالصلح على أن يخرج هو وهم جميعا من مصر وكان منظر خروج جيش شيركوه من بلبس في أكتوبر سنة ١١٦٤م (٥٥٩هـ) أشبه شيء بالنصر وذلك أن الجيش سار عن بلبس وجاء في آخره أسد الدين شيركوه يحمل في يده لتنا من حديد يحمى ساقهم ووقف حول الجيش جمع من مسلمي مصر ومن الفرنج ينظرون اليه وهو يخرج عن البلاد. فقال له أحد الفرنج «أما تخاف أن يغدر بك هؤلاء المصريون والفرنج وقد أحاطوا بك وبأصحابك حتى لا تبقى لك بقية» فأجاب شيركوه «ياليتم فعلوا حتى كنت ترى ما أفعل . كنت والله أضع السيف فلا يقتل منا رجل حتى يقتل منهم رجلا وحينئذ يقصدهم الملك العادل نور الدين فلا يبقى منهم أحدا» .

في مثل هذه الحال وفي مثل ذلك الحق المعنوي — بدأ صلاح الدين أول جولة جدية له في غمار الحياة العملية .

مضى بعد ذلك أكثر من عامين كان فيهما شاور سيد الدولة بمصر وكان شيركوه في أثنائهما يردّد أمّله في العودة الى مصر لا متلا كها وكان يحترض نور الدين بكل وسائل التحريض وهو يعلم أن أقرب الحجج الى نفسه أن مصر تساعد على جهاده مع أعدائه الفرنج وكان يسهل له فتحها قائلا «انها دولة بغير رجال» ولكن يجب أن لا ننسى أن ثروة مصر أيضا كانت من أكبر حجج شيركوه أمام نفسه وأمام سيده وكان الخليفة العباسي عند ما علم بما يقصده شيركوه يساعد على غزو مصر بتحريضه ودعواته فان بيت بنى العباس لم ينس أن بيت فاطمة في مصر كان منافسا خطيرا وأن الشيعة العلوية بدعة يجب أن تزول فلا يبقى على الأرض إلا السنة وأتباعها .

وقد كان نور الدين يتردّد في إنفاذ تلك الحملة التي يحرضه شيركوه على إرسالها . ولكنه علم أن الصليبيين على نية غزو مصر، بفعله ذلك يعزم وما كان أقل جيشه عددا فقد كان نصف عدد أول فرقة أنفذها عمر بن بن الخطاب الى مصر إذ كانوا لا يزيدون على ألفي رجل على الأصح ولو أن الفرنج يبالغون في عدد ذلك الجيش . على أنهم كانوا ألفين من فرسان أبطال، وكان صلاح الدين مع عمه هذه المرة أيضا .

سارت الكتيبة في أوائل سنة ١١٦٧ م (٥٦٢ هـ) الى شرق النيل عند اطفيح وعبرت الى البر الغربي من هناك فأقبل (أمرى) بجيش كبير من الشام فانضم الى جيش شاور وكان عدد جنوده من الفرنج والمصريين معا أكثر بكثير من عدد جيش شيركوه ولو أن الفرنج يدعون أنهم لم يكونوا في كثرة .

بعد حين كان الجيشان أحدهما عند القسطنطينية وهو جيش مصر وحلفائها الفرنج . والآخر وهو جيش الأتراك (شيركوه) عند الحيزة في البر الغربي . ومضت فترة انتظار كان فيها الصليبيون يستوثقون لأنفسهم بمعاودة أمضاها الخليفة العاضد بنفسه وحلف عليها على أن يعطى الفرنج مائتي ألف دينار معجلة ومثلها مؤجلة ثمنا لمساعدتهم^(١) .

(١) جاء في كتاب صلاح الدين تأليف استاتلى لين بول :

« أخير هيو حاكم قيصرية وجوفرى فارس المعبد رسلا من الملك (أمرى) وقد سار بهم الوزير بنفسه وجعل يقتحم بهم كل رسوم الأوضاع السرية . فسار بهم في ممرات خفية وأبواب عليها حراس من أقوياء السودان وكانوا يحبونهم بسبب وفهمهم المجردة حتى بلغوا صحنا فسيحا لا سقف له إلا السماء وحوله أقيية قائمة على عمد من الرخام وكان السقف المزخرف مرصعا بالذهب مزينا ببيدع الألوان وأما الأرض فكانت من الفسيفساء البديعة ، وقد أخذت تلك المناظر بعيون الفارسين الذين لم يعتد نظرها أن يقع على مثل هذا الجمال ، فكانا يريان هنا فؤارة من الرخام تحيط بها الصيور =

بعد ذلك عبر جيش الفرنج والمصريين الى الغرب على غمرة من شيركوه فاضطر هذا أن يتقهقر الى الجنوب حتى بلغ (البابين) في جنوب المنيا وهناك على حافة السهل الغربية من قبل الصحراء وقف شيركوه باصحابه واستعد للحرب رغم نصيح بعض قواده

= الزاهية التي ليس مثلها في بلاد الغرب ثم يريان هناك أنواعا من الحيوان لا مثل لها إلا أن يصور ألوانها مصور بارع أو يخترع صورتها شاعر ماهر أو يخلم بها حالم في عالم الخيال وهكذا كانا يريان أشياء لا يريان مثلها في بلادهما إذ هي مما لا يوجد إلا في بلاد الشرق والجنوب .

وبعد سير طويل في تعاريج وتلافيف وصلا الى مكان العرش فأعلن قدومهما عدد عظيم من الحشم يلبسون حلابية ، ثم تقدم الوزير حالعا سيفه وقبل الأرض ثلاث مرات كأنما يسجد لله ثم أعقب ذلك أن انكشفت الستائر الثقيلة بجأة وهي تلمع بماعليها من ذهب ولؤلؤ ، ولاح من خلفها الخليفة وعليه حلل وزينة تزرى بما يحلى به الملوك .

فتقدم اليه الوزير بنخشوع الرسولين الفارسين وبين بصوت منخفض ما كانت فيه البلاد من الخطر وما كان من شأن صداقة ملك بيت المقدس له ، وكان الخليفة شابا أسمر اللون قد خطا الخطوات الأولى خارجا من عهد الصبا ، فقال انه يرغب أن يوافق على معاهدة صديقه العزيز ملك بيت المقدس ، ولكنه تردد في أن يمد يده عند ما طلب الرسول منه أن يمد يده دليلا على صدق عهده وقد غضبت حاشيته من ذلك الطلب غير أن الخليفة مده يده بعد قليل الى السير هيو ، ولكن هذا وجد عليها قفازا فقال : « مولاي ان الحق لا غطاء له وان كل شئ مكشوف في عهود الأمراء » فتبسم الخليفة برغمه وخلع قفازه كارها ثم مده الى هيو وحلف اليمين على إنفاذ المعاهدة بصدق واخلاص .

ألا يفعل . وبدأت الموقعة العظيمة في ١٨ أبريل سنة ١١٦٧ م . وكانت خطة شيركوه أن يجعل صلاح الدين في القلب — فيظن أعداؤه أنه هو شيركوه الذى فى القلب حسب العادة المتبعة إذ كان القلب عادة يوضع تحت قيادة رئيس الجيش وتوقع شيركوه بذلك أن يكون القلب أول ما يتعرض لهجوم العدو . وأما هو فقد اختار جماعة من أبطاله المجريين وجعل منهم الجناح الأيمن وأمر صلاح الدين اذا هو هوجم أن يتفهم فى نظام ولا يثبت ثبوتاً جدياً حتى يغتر الفرنج ويتبعوه — وهكذا كان ما توقع فان كلمة جيش مصر والفرنج صدمت القلب صدمة قوية فتفهم صلاح الدين بنظام وثبات فتبعه الفرنج وعند ذلك هبط شيركوه بالجناح الأيمن على جيش المصريين فخطمه حتى اذا ما عاد الفرنج من تتبع القلب وجدوا حلفاءهم منهزمين . فاتبعوهم منهزمين كذلك — على أن شيركوه لم يتبع أعداءه ولعل ذلك راجع الى قلة عدد جيشه فأثر أن يذهب الى الاسكندرية وقد تمكن من أخذها بمساعدة أهلها وترك بها صلاح الدين بنصف الجيش وعاد هو الى الصعيد يجبي أمواله .

وهناك فى الاسكندرية ظهر غناء صلاح الدين وتكشفت مواهبه فى الحرب وكيدها وبدأ منه ذلك الثبات وذلك السلطان على النفوس وتلك القوة التى ميزت خلقه فى حياته المقبلة .

عاد المصريون والفرنج بعد أن جمعوا أمرهم وأصلحوا ما أفسدته الهزيمة الى الاسكندرية فحاصروها من جهة البر على حين كان أسطول الصليبيين يهاجم المدينة من جهة البحر . وقد استمر الحصار نحو شهرين ونصف شهر ونفذت الأقوات ولم يكن بالناس من اطمئنان على تلك الحال من الحصار وكان صلاح الدين في قلة من الجنود لا يستطيع غير أن يث ما في نفسه من ثبات في قلوب من في المدينة من تجار وصناع وعامة ، فكان حيناً يعدمهم بقدم شيركوه بالزاد والثروة ، وحيناً يخيفهم بإيقاع الفرنج وقسوتهم ، وحيناً يرغبهم في الصبر والثبات في سبيل نصر الدين على أعداء ملة محمد ، وكان في الوقت نفسه ينفذ الرسل الى عمه يشكو اليه ما هو فيه من مشقة وعناء من أعدائه وأصحابه على السوء وأخيراً جاءت البشرى بقدم أسد الدين من الصعيد الى القاهرة وحصاره لها . وعند ذلك رأى ”امرى“ أن النصر غير ممكن فاتفق مع شيركوه على أن تخلى الاسكندرية وأن يخرج الجيشان جميعاً من مصر وأن يأخذ شيركوه كل ما استولى عليه من الأموال ويزيد عليه خمسين ألف دينار، وهكذا انتهى دور الحرب الثانى على بقاء مصر خالصة لشاور . ولعله تبسم إذ ذاك وفرك يديه مهتئاً نفسه عند ما رأى نجاح لعبه بالقوتين العظيمتين قوّة الصليبيين وقوّة الأتراك وبقائه سالماً بين

تنافسهما ، ولكن مثل هذا السلاح سلاح الخداع والحيلة قد يرتد على من يستعمله فيقتله ، ولا شك أن صلاح الدين حمل لشاور في تلك المرة كثيرا من الكره ممزوجا بالاحتقار إذ أدرك حقيقته .

لم يقيم الفرنج بما تعهدوا به فأبقوا منهم حراسا على أبواب القاهرة وضربوا على مصر جزية نحو مائة ألف دينار كل عام وكانوا يطمعون في أكثر من هذا أى أنهم كانوا لا يرضون بأقل من ملك مصر بعد أن عرفوا من ضعفها أكثر مما عرفه شريكوه .

وقد عادت جيوشهم بعد نحو عام من معاهدتهم لغزو مصر — وكان عزيمتهم هذه المرة عزم من لا يريد هودة ، غير أن شاور أظهر من المقاومة ما لم يكن متظرا منه فأحرق القسطنطين حتى لا تكون غنيمة لأعدائه الذين كانوا حلفاءه بالأمس ، ومنذ ذاك الوقت ذهبت أول عاصمة إسلامية لمصر ولم يرجع إليها بعد ذلك شيء من روائها القديم إذ ظلت النيران تأكلها أكثر من خمسين يوما .

وكان جماعة من المصريين الذين حول الخليفة العاضد والذين كانوا أعداء شاور يرأسلون نور الدين لكي يأتي لمساعدة مصر على أعدائها ، وكان نور الدين يميل إلى التدخل بطبيعة الأمر فما هو إلا أن أرسل إليه العاضد يستنجد به حتى أخذ يعد جيشا لغزو مصر وكانت الشروط التي وعد بها العاضد شروطا لا تبررها إلا الضرورة

القصوى التى كانت بها مصر فقد وعد نور الدين بثلث أرض مصر وإبقاء جيش احتلال مع شيركوه فيها وأن يقطع الجنود أرضا خارجة عن ثلث البلاد الموعود به لنور الدين .

أما شاور فانه لم ينس أن يلجأ الى الحيلة منذ رأى نفسه بين عدوين لا حظ له مع أيهما، فأحب أن يعمل على صرف الفرنج عن البلاد بالمال، فجعل يفاوضهم حتى اتفق معهم على ألف ألف دينار يعطيها لهم ليرحلوا عنه وعجل لهم منها مائة ألف ولكنه لم يستطع أن يحمل اليهم سائر المال .

وبينما هو كذلك إزاء أعدائه الفرنج كان نور الدين وشيركوه يسرعان فى الاستعداد حتى أتماه وسار جيش من ستة آلاف بينهم كثيرون من الأمراء النابهيين وفيهم صلاح الدين الذى سار مع الجيش على كره بعد إلحاح عمه وتكرر طلب نور الدين، ويظهر أن صلاح الدين كان غير راض عن الاشتراك فى غزو هذه المرة لما شهدته فى الحرب الماضية من الشدة لا سيما فى الاسكندرية . ولكنه على أى حال سار مع الجيش وكان الجميع فى مصر فى أوائل يناير سنة ١١٦٩ م ٥٦٤ هـ وكان "امرى" ملك الفرنج عند وصول جيش نور الدين واقفا يستنجز شاور وعده فى المال المتفق عليه، فلما أتى جيش نور الدين ورأى "امرى" موقفه الحرج وهو بين

شاور من جهة والجيش الاسلامى المغير من جهة أخرى لم يستطع البقاء فعاد الى الشام بغير أن يصطدم بالجيش القادم وبقى شيركوه وحده بمصر وكان الخليفة العاضد ظاهر الفرج به فأكرمه وخام عليه ، وأما شاور فلم يكن راضيا عن وجود ذلك الجيش القوى على كسب منه غير أنه بلغ غيظه العظيم ولم يظهر شيئا منه خوفا وعجزا وجعل يماطل فى انفاذ الشروط التى اتفق عليها العاضد ونور الدين. وجعل يظهر الدين لى يخلص من عبء ذلك التعهد الثقيل ، وكان يريد أن يستميل شيركوه بالملق والمداهنة بل لعله كان يفكر فى أن يوقع به لولا مقاومة ابنه لذلك رأى .

رأى شيركوه مماطلته ويلوح أنه كان يميل الى التساهل قليلا ولكن كان هناك من يكره ذلك الرجل المخادع ويحتقره ويستشف الخيانة من وراء لين ظاهره — وذلك هو صلاح الدين . ففاتح عمه فى القبض على ذلك الثعبان فلم يرض شيركوه — فعزم هو على أن يأخذ الأمر فى يده . وفى ذات يوم خرج شاور على عادته الى معسكر الجيش التركى خارج القاهرة فلم يجد شيركوه وقيل له إنه خرج لزيارة قبر الامام الشافعى فرأى شاور أن يذهب اليه هناك وفى أثناء سيره قرب منه صلاح الدين ومعه عز الدين جورديك أحد أمراء الجند وقبضا عليه فأنزلوه الى الأرض وقيدها وانهمزم

أصحابه عنه ووضع في خيمة وحده — وما هو إلا أن بلغ نبأ القبض عليه لخليفته العاضد حتى أرسل يلح في طلب رأسه — فأطيع أمر الخليفة وهكذا ذهب رجل كان يلعب بأمر مصر نيفا وست سنين واتهى كل مكروه الذى كان يدل به بدخول جيش نور الدين واستيلائه على البلاد .

وقد كان من الممكن أن نمر على هذا الموقف مروراً سريعاً . فليس به ما يستحق أن نقف عنده لعبرة أو مناقشة ولكن حرصنا على اظهار حقيقة نفس صلاح الدين كما هى تجعلنا نسائل النفس هل هناك فى عمله بشأن شاور ما يؤخذ عليه . لقد قبض على الرجل وقيده حتى جاء أمر الخليفة العاضد بقتله . ولعله كان ذايد فى انفاذ أمر العاضد — أو لعله على الأقل حبذ ذلك الأمر وسرله . ألم يكن ذلك غدرا من صلاح الدين فى أوله وقسوة فى آخره ؟ انا لا نستطيع أن ننسى شخص شاور اذا أردنا مناقشة هذا الرأى فقيد كان صلاح الدين يحمل فى نفسه عنه رأيا سيئا منذ الحملتين الأولى والثانية ، اذ عرف لين ملمسه وخبت نيته وضعف نفسه الذى يغطى عليه بمكره . وقد انكشف له جشعه الذى كان يحاول اقناعه مضحيا بالدماء الغزيرة من أصحابه ومنافسيه على السواء . فهل عجيب مع ذلك أن يكره صلاح الدين مثل هذا الرجل ويسعى

فى تطهير مصر منه؟ أليس من الطبيعى أن تحزه تلك البسمات التى كان يراها على وجهه المخادع وهو يعلم ما انطوى تحتها؟ وإذا هو رأى مما طلته ومداهنته أليس من المتوقع أن تثور نفسه الحرة الصريحة التى غذاها هواء الجبال والصحراء ولم تعرف إلا الحقيقة الجاهمة فى ميادين الموت التى كان يخوضها؟ وإذا هو سمع الاشاعات عن نية ذلك الرجل الغدر بعمه أسد الدين، أما كان واجبه أن يتخذ الحيلة منه وهو من يعرف عنه الخبث والغدر؟ حقا لقد احتقر شريكوه أن يؤاخذ شاور بما يشاع عنه وتكبر أن يابه بالخطر الذى كان يهدده من ناحيته فكان فى ذلك مثله مثل من يرى الحية تريد أن تنهشه فلا يرضى لها إلا عقب نعله يدفع به عن نفسه أمامها، ولكن شجاعة شريكوه وكبره شىء وعدالة موقف صلاح الدين شىء آخر فقد أخذته الحفيظة فعزم على أن يوقف ذلك المرأى عند حدّه. فأسره مع جماعة من اخوانه ولكنه لم يقتله. فإذا كان قتله ذنبا فالذنب إذن على الخليفة العاضد الذى ألح فى قتله وأمر به غير مرة. على أن صلاح الدين لو قتله لما كان آثما ولا معتديا — فان شاور رجل قل أن تجد فى التاريخ من استحق القتل مثله. ولا من يكون قاتله أشدّ رضاء عن نفسه وأسلم من تأنيب الضمير والندم. فهو رجل أثار حربا من أجل الوزارة بمصر وبعد أن نصره جيش قتل

من قتل من رجاله وأبطاله رجع يغدر به ويستنصر عليه بعدوه .
وقد كان من الممكن أن يرضى الانسان عن خطة شاور لو أنه اتخذ
لنفسه جانبا وسار مخلصا فيه الى غايته ولكنه كان مثل اللاعب
فوق الحبل يميل تارة ههنا وتارة ههنا يحاول أن يحفظ نفسه فوق
مكانه الدقيق . فاذا نحن أردنا الحكم عليه وعلى خطته كان لا بد
لنا أن نقر له بالمهارة فى الانتفاع بمن حوله ومقدرته على التقلب
مع الظروف والأحوال ولكن ذلك كل ما يمكننا أن نقوله معه
فقد كان مثالا للسوء فى تعامله وتعهده ونيته . ولقد كان صلاح الدين
باشتراكه فى أسره آله من آلات العدالة الالهية .

وقد اختار الخليفة العاضد بعد قتل شاور أسد الدين شيركود
ليكون وزيرا محله وبالع فى اكرامه وخلع عليه وسماه الملك المنصور
وجعله قائد قواده وأمير جيوشه غير أن الأجل لم يمهل له ليتمتع بفقاعة
مجد الدنيا أكثر من شهرين وخمسة أيام وقد كان جديرا بمصر
وملكها لأنه فى الواقع أكبر من دفع على غزوها واليه أكبر الفضل
فى فتحها . وقد قيل مات من الخناق من وراء تخمة اذ كان كثير الأكل
وهو أقرب الآراء الى التصديق وقيل مات من حلة مسمومة —
وما أحرانا أن نلحق ذلك القول الأخير بأمثاله فى أقاصيص الشرق
فما زال الخيال الشرقى ميالا الى أن يحيط بأبطاله بالأسرار والخفايا .

وعند موت شيركوه كان فى الجيش جماعة من كبار الأمراء
وكان المتوقع أن يختار أحدهم وزيرا بعد شيركوه فما كان من الممكن
أن يتجاهل الخليفة العاضد وجود ذلك الجيش المحتل فى بلاده .
وكانت المظاهر كلها تدل على أن خليفة مصر ورجاله يحبون
الابقاء على مساعدة جيش نور الدين خوفا من تدخل الصليبيين
فقد كانوا يرون أنه اذا كان لا بد من احتلال أجنبي فليكن ذلك
الجيش من المسلمين . ولهذا كان المنتظر أن يختار العاضد وزيرا له
من كبار أمراء الجيش النورى ولكن حدث ما لم يكن منتظرا فان
السياسة المصرية إذ ذاك كانت لا تنسى أن تلجأ الى الدهاء فى مقابلة
المصاعب الكثيرة التى كانت غير قادرة على حلها فى ميدان الصراحة
والقوة ، ولهذا عمد الخليفة العاضد الى حيلة يحسبها تضمن له
مساعدة جيش نور الدين مع أمن شره واتقاء استبداده بفرى على
عادة المصريين فى تفضيل الأصاغر لكى يكونوا أسهل قيادا . فتخطى
الأمراء الكبار فى الجيش واختار للوزارة ذلك الشاب الذى كان
مظنة اللين والسهولة وهو صلاح الدين فقد رأى الخليفة فيه ماظنه
ضعفا واستكانة لما كان عليه من الحياء والاعتزال وقلة التظاهر
ولو كان الخليفة ورجاله أنفذ نظرا وأعمق فكرا لعرفوا أن تلك
المظاهر انما تخفى نفسا كبيرة توافقه إذ أنه لم يكن سوى ذلك الجندى

الشجاع الذى أبلى بلاءه فى موقعة البابين وذلك القائد القادر الذى دافع عن الاسكندرية دفاعه المجيد مع حداثة سنه وشدة الظروف التى حوله على أن الأمور جرت بقدر وكان خطأ الخليفة العاضد ورجاله من حسن حظ مصر والاسلام فأصبح صلاح الدين وزيرا لمصر وأميرا لجيوشها .

٣ - وزارة صلاح الدين

لم تكن بصلاح الدين رغبة فى الوزارة فقد كان يرى حرج موقفه فيها ويعلم أنه لا بد يلقى فيها متاعب ومصاعب فدونه أمور سياسة الدولة وأى دولة ؟ انها مصر التى يتطاحن عليها جماعة من المستوزرين من الداخل يريدون السلطة ، وجماعة من الصليبيين من الخارج لايدعونها سالمة . وكان كذلك يستشف كراهة الأمراء الكبار لتوليته ، ولم تكن نفسه من تلك النفوس الجشعة التى اذا لوح لها بالمجد طارت اليه طائشة بل لعله كان يرى من نفسه غنى عن ذلك المجد بما يشعر به فى نفسه من عظمة .

ولهذا نعلم أنه تردد كثيرا حتى رضى بعد لآى أن يكون عند اختيار الخليفة فذهب الى القصر وخلعت عليه خلعة الوزارة « من جبة وعمامة وغيرهما » ولقب بالملك الناصر .

ولسنا نجد غرابة في أنه قبل الوزارة بعد امتناع فانه فكر في نفسه وفي من حوله فلم يشعر بما يجعله يظن في غيره قوة ليست عنده ورأى أمورا معوجة طمع أن يكون له فضل اصلاحها ولعل آمالا أشرقت في نفسه عند ما رأى صغر نفوس رجال الدولة التي أمامه فأقدم وهو يشعر بثقل الأمانة وصعوبة المرتقى .

كان اختياره مغضبا ل كبار الأمراء كما توقع فلم يأبهوا به واعتزلوه حتى سعى بينه وبينهم رجل من رجال الدين والسيف معا وهو البطل الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري فأقنعهم بأن يظلوا على الولاء له حتى قبلوا جميعا إلا جماعة أكبرهم عين الدولة الياروق فانه خالف وعاد مع جماعته الى الشام وبقى صلاح الدين بمصر ليقابل أمورها واحدا فواحدا ولسنا نسمع بعد ذلك عن خلاف بينه وبين الأمراء الذين رضوا بالخضوع له فلم يظن أحد منهم أنه خضع لغير شريف ، أو أذل في ذلك الخضوع ، وقد رضى نور الدين عن ذلك الاختيار وفرح به وصار يرسل اليه في مخاطباته (الى الأمير الأسفهلار) وذلك لقب معناه (الأمير الحاكم) كان يطلق في ذلك الوقت على كبار القواد .

ولكن اذا كان صلاح الدين قد أمن جانب من معه من الأمراء فانه لم يأمن جانب الياروق ومن معه في الشام وهم يرقبون منافسهم الفتي عن بعد .

غير صلاح الدين من نفسه بعد أن صارت له الوزارة فامتنع عن اللهو والخمر واستشعر الجِدِّ في كل أعماله وأخذ جوهره يظهر صافيا خالصا وكان من أكبر الصفات التي ظهرت فيه كرمه في البذل لمن معه وتعففه عن أن ينال لنفسه شيئا .

ولعله شعر أنه محتاج إلى أمناء أوفياء لا يداخله شك في أمرهم فأرسل يطلب من نور الدين أن يبعث إليه أباه وأخوته فأرسلهم إليه بعد أن استوثق منهم أن يطيعوه ولم يدر نور الدين أن ذلك الفتى الناشئ لم يكن في حاجة إلى ذلك الاستيثاق فقد كان له من عظمة نفسه ما يجعل من معه يخضع له راضيا وهكذا كان فلم تمض على وزارته سنة وأشهر حتى كان كل من معه من الأمراء والأهل خاضعا محبا لسيادته في آن واحد .

ولعله من المفيد أن نقول أن سنه وقت أن تولى الوزارة لم تكن بأزيد من واحد وثلاثين عاما .

وكانت الأمور التي شغلته منذ تولى الحكم بعضها في الداخل وبعضها من الخارج وكان الداخل أول ما استوجب منه العمل وذلك أنه بعد وزارته بأربعة شهور شعر رجال القصر أنهم بإزاء رجل ذى بأس وليس كما ظنوه ضعيفا فأخذوا يدسون له وكان رئيسهم خصيا أسود (مؤتمن الدولة) فبدءوا يرسلون الفرنج سائرين

على سنة شاور، فعلم صلاح الدين بالأمر وكتبه حتى رأى فرصة في مؤتمن الدولة فقبض عليه وقتله فتعصب له الجند السودان حراس القصر وثاروا بصلاح الدين ولكنه كان مستعدا فأوقع بهم بين القصرين ولم ينج منهم إلا القليل الشريد ومنذ ذلك الحين جعل على القصر خصيا أبيض من رجاله وهو بهاء الدين (قراقوش) .

لم يمض زمن طويل بعد تلك الثورة حتى واجهته أخطار من وراء البحر فجاءت أساطيل الدولة الرومانية الشرقية والفرنج لحصار دمياط في عدة كبيرة اذ بلغت سفنهم نيفا ومائتين ولعلمهم حسبوا ان خلو مصر من شيركوه يجعلها سهلة الفتح فأظهر صلاح الدين أنه يقدر على كثير في غير جابة فأرسل العسكر والذخيرة الى دمياط بالنيل ومكنها بذلك من مقاومة هجمات المغيرين العنيفة وأرسل في الوقت عينه الى نور الدين يذكر له الحال ويطلب منه المعونة ثم لم يتوان في الأمر فذهب في جيش الى دمياط ليشغل المحاصرين عن فتح المدينة . وقد أسعفه نور الدين كعادته اذا جدّ الجدّ فأرسل اليه البعوث ارسالا يتلو بعضها بعضها ثم أهوى هو في الشام الى بلاد الفرنج فنهب فيها وخرب فاضطر المهاجمون الصليبيون أن يرفعوا حصار دمياط ويعودوا الى الشام ليحموه من هجمات نور الدين بعد خمسين يوما من الحصار، وكانت سياسة صلاح الدين الداخلية

عاملا من عوامل الاطمئنان والوفاق في مصر حتى أن الخليفة العاضد لم يضق به كما كان يضيق بمن سبقه من الوزراء ولم يفرح بهجوم الصليبيين هذه المرة ولم يستعن بهم بل أرسل الى صلاح الدين كثيرا من المال والذخيرة حتى لقد قدر صلاح الدين نفسه ما أرسله العاضد اليه بمقدار مليون من الدينانير المصرية . نذكر ذلك تشريفا لآخر خلفاء الفاطميين في مصر .

٤ — انقراض الدولة العلوية الفاطمية بمصر

بقيت الدولة الفاطمية بمصر نحو قرنين وهي تحاول بسط سلطانها على ما جاورها من البلاد وكان امتداد ملكها انقاصا من سلطان دولة العباسيين .

وظلت الدولتان متنافستين تعلق كفة العباسية مرة وكفة الفاطمية مرة الى أن جاءت الدولة السلاجوقية كما سبق القول وكانت الدولة الفاطمية قد اضمحل أمرها منذ أن مضى أوائلها العظام . على أننا لا نستطيع أن نعرف على وجه البت هل كان لوجود هذه الدولة العلوية في مصر قرنين أثر في عقائد أهلها . فان كل الظواهر تدل على أنه لم تكن هناك رسوم دينية خاصة تخالف أساس ما اعتاد أهل السنة في عباداتهم ومعاملاتهم . فانه ان كان

ثمة شيء من ذلك فهو شيء من الزخرف والزينة والأبهة في رسوم الدين ولم يكن على ما يظهر اختلاف في أساس العقيدة فلم يكن خلفاء دولة الفاطميين من غلاة الشيعة ولم تكن لهم تلك العقائد الغريبة السرية التي تميز الشيعة في الأقاليم الأخرى . أما الزخرف الذي ذكرناه في رسوم الدين بمصر فلم ينكره أحد وقديما كانت مصر تميل الى الزخارف في رسوم الدين وليس بأس من ذلك مادام لا يمس العقيدة . ولعل طبيعة أرض مصر الوادعة وطبيعة أهلها الميالين الى المرح والبسطة والسهولة الذين يقدرّون الجمال ويحبونه — لعل كل ذلك حجب الى نفوسهم ما كان للدولة من تكلف في الدين وأبهة وزينة في الحفلات . وأما العبادات والمعاملات بحسب القانون الديني فاننا لانجد ما يدل على أن دولة الفاطميين قد أحدثت فيهما تغييرا يذكر .

ولم يكن بالمصريين كره للدولة الفاطمية على أنه لم يكن بهم كذلك ميل الى التوضحية بشيء في سبيلها كما هي عادة الدولة اذا كان حكمها في يد طائفة معينة دون جمهور الشعب . وكان الشعب المصرى يرى في كثير من الأحيان لاسيما في الايام الأخيرة ظلمها وضعفا من جانب الدولة ولكنه كان دائما يميز بين الوزارة صاحبة القوة فيحقق عليها وبين الخلافة صاحبة الأمر الأعلى ويعلم انها

لا حول لها ولا قوة ولهذا كان يعطف عليها فعندما أبصر الشعب صلاح الدين على الوزارة ورأى كرمه في البذل وتصرفه في الدفاع وقوته في الحرب أعجب به وأحبه والتف حوله . وكان صلاح الدين منذ أخذ الوزارة في يده يسعى لتوطيد أمره بأن يجعل الشعب يثق به ويلتف حوله . ولكنه آثر ألا يصدمه بتغيير فجائي فبدأ ينشئ المدارس السنية على مذهب الامام الشافعي وعارض سيده نور الدين في أمر القضاء على الحكم الشيعي من أول الأمر إذ كان نور الدين يحب أن يبدأ بإزالة الخلافة الفاطمية عند أول دخول جيشه مصر فراجع صلاح الدين مظهرها ما قد ينتج عن مثل هذا الانقلاب الفجائي .

إلا أن إلحاح نور الدين في قطع الخطبة العلوية بمصر جعله يفكر كيف يعمل فاستشار أصحابه فانقسموا في الرأي بين محبذ ومنكر واتفق بعد ذلك أن مرض العاضد واحتجب في قصره فرأى الوزير الفرصة ممكنة فجرب قطع الخطبة من أحد المساجد وقام بالخطبة للخليفة العباسي رجل أعجمي يعرف (بالأمير العالم) فلم يحدث استنكار من جانب الناس فأمر صلاح الدين الخطباء جميعا أن يقطعوا خطبة العاضد ففعلوا وتم الانقلاب بدون حدوث شيء . وقد أول جماعة تردد صلاح الدين بأنه كان يرغب في بقاء الخطبة .

للعاضد خوفا من نور الدين . ولا حاجة بنا الى الوقوف هنا لرد هذا الزعم إذ لا نجد حجة هذه الجماعة جديرة بالتنفيذ . فان الحكمة السياسية وحدها كانت تقضى عليه بسلوك ما سلك من طريق التريث . أرسلت البشائر الى نور الدين وبغداد وازينت عاصمة الخلافة العباسية وأرسلت الخلع من الخليفة العباسي الى نور الدين . وصلاح الدين وأصبح في الشرق كله خليفة واحد من بنى العباس لا ينازعه أحد ينتمى الى ذلك البيت الجليل بيت بنى هاشم .

وقد حدث أن العاضد في أثناء مرضه أرسل يستدعى صلاح الدين يخاف صلاح الدين أن يلبي وظنها خدعة ومؤامرة على عادة المصريين . ولكنه عرف فيما بعد أن العاضد كان مخلصا في طلبه فندم على ذلك إذ كان لا يرى من ذلك الشاب الخليفة إلا كل ما يرضيه من حب ومساعدة وإخلاص . وقد كان من حسن حظ العاضد أنه لم يعرف ما حدث من الانقلاب فقد توفي من مرضه في سبتمبر سنة ١١٧١م - ٥٦٧هـ . ولم يعلمه أحد بأن الخلافة نزعته عنه بعد أن لبثت أكثر من قرنين ونصف قرن في بيته منذ كان في شمال أفريقية قبل هبوطه مصر .

وهنا فلنسكت عما كان في قصر الخليفة من تحف ثمينة وآثار قيمة وكتب نفيسة وآلاف العبيد والأماء والثروة الطائلة . ولنكتف

بأن نقول أن صلاح الدين لم يرزأ من كل ذلك شيئا لنفسه بل ذهب كله لرجال الجيش والأمراء الذين معه حتى القصر نفسه وبقى الوزير العظيم مقيا حيث كان في خشونة من العيش وسذاجة من الحياة تقرب من حياة الزاهد .

٥ - الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين

نحن مضطرون أن نقف قليلا نناقش تهمة يوجهها كثير من المؤرخين الى صلاح الدين وهي انه منذ شعر بثبات مكانه بمصر أثار وحشة بينه وبين سيده وعزم على الخروج عليه ومحاربه اذا دعا الأمر . وما كان للانسان أن يتهم حتى يكون عنده الدليل القاطع . واتهام صلاح الدين بالخروج على نور الدين وإثارة الوحشة بينه وبين سيده الذى يحله والذى كان له عليه فضل التربية والعناية والتشجيع . اتهام خطير يجب على من يسوقه أن يكون من أشد الناس احتراسا فى قوله ولهذا نؤثر أن نذكرتهم المؤرخين ثم نرى مقدار قوتها على ضوء المنطق ودلالة التاريخ وهذه هى التهم التى تساق :

(١) بعد القضاء على الدولة الفاطمية سار صلاح الدين سنة ١١٧١ م - ٥٦٧ هـ . راغبا فى حرب الفرنج فحاصر حصن الشوبك بفلسطين على مسيرة يوم من الكرك فعلم نور الدين بذلك .

الحرب فرغب في مساعدة صلاح الدين فسار من دمشق نحوه وكان صلاح الدين قد أوشك أن يأخذ الحصن من الفرنج فلما علم بمسير نور الدين تركه ورجع الى مصر وكتب الى نور الدين يعتذر له باختلال الأمور في مصر فلم يقبل نور الدين ذلك الاعتذار وعزم على المسير الى مصر وإخراج ذلك المتمرّد عنها . فجمع صلاح الدين أهله وفيهم أبوه وخاله ومعهم سائر الأمراء واستشارهم فقال قائل تمتنع عليه ونحار به . فقام نجم الدين أيوب أبو صلاح الدين وقال قولاً معناه أنه لا يوافق وأنه أوّل من يطيع نور الدين ويعصى ابنه إذا خرج عليه . وانفض المجلس على نصيحة أيوب أن يرسل صلاح الدين الى نور الدين يستميله ويطلب عفوه ويدعنه له ويظهر الخضوع ثم لما خلا أيوب بابنه قال له « ما كان ينبغي أن تصنع ما صنعت فان الأخبار لا شك تبلغ نور الدين » ثم قال له « ألا فاعلم أننا لانسلم البلاد له ولو أراد قصبه من قصب السكر لحاربناه عليها » .

(٢) بناء على المفاوضة بين صلاح الدين ونور الدين استقرّ الأمر أخيراً على أن يقصد الاثنان حصن الكرك ويحاربا هناك معا فلما كانت السنة التالية (أوائل سنة ١١٧٣) ذهب صلاح الدين وحاصر الحصن فلما بلغه مجيء نور الدين رجع ورفع الحصار عنه

وعاد الى مصر وأرسل الفقيه عيسى الهكاري يعتذر لنور الدين بأنه ترك أباه على مصر فرض وأنه يخشى أن يموت فتخرج البلاد من أيديهم وأرسل مع الفقيه من الهدايا والتحف ما يجمل عن الوصف . فلم يقتنع نور الدين بذلك الاعتذار واستوحش باطنا ولكنه لم يظهر شيئا من تأثره .

(٣) ما بين غزوة الشوبك سنة ١١٧١ م - ٥٦٧ هـ . وغزوة الكرك في أوائل سنة ١١٧٣ م - ٥٦٩ هـ . قد أرسل صلاح الدين أخاه الأكبر شمس الدولة توران شاه ليفتح النوبة لكي تكون لهم موثلا يلجأون اليه اذا أجلاهم نور الدين عن مصر . ولكن تلك الحملة لم تنجح لأنها وجدت البلاد صحراء لا تغنى .

(٤) بعد غزوة الكرك في سنة ١١٧٣ م - ٥٦٩ هـ . لما رأى صلاح الدين أن النوبة لا تغنى أحب فتح ملجأ آخر فأرسل يستأذن نور الدين في فتح اليمن « فاذن له نور الدين » فذهب أخوه شمس الدين توران شاه اليها وفتحها ونظم أحوالها وأصلح شؤونها واستقام أمر الأيوبيين بها نحو خمسين سنة .

هكذا يصور كثير من المؤرخين موقف صلاح الدين بازاء سيده وحقا ان في الحوادث التي يذكرونها كثيرا من الحقيقة ولكن تأويلهم في ظننا تاويل لا تبرره الظروف ولا يقبله العقل وما كان

لنا أن نكذب تأويلهم لولا أننا نرى أن الأدلة كلها تشير الى أن ذلك التأويل صادر عن الخيال لا عن الحقيقة . فهناك الأدلة المادية التي تظهر تأويلا غير هذا وهناك ما نعلمه من صلاح الدين وخلق ما ينفي أن الأمر الواقع كان كذلك .

هنا أمر يستوقف النظر وهو أن المؤرخين الذين يذكرون تلك الأمور يتفقون في إيرادها وفي كثير من الأحيان تتفق ألفاظهم مع اختلاف في الإيجاز والاطناب وهذا ما يجعلنا نظن أن مصدر القصة واحد أخذ عنه الجميع ولا يبعد أن يكون ذلك المصدر من جانب الشام أو جانب من كان مع نور الدين من الأمراء الحاقدين على صلاح الدين أمثال الياروق . أما نحن فنرى لكل تلك الحوادث تفسيراً آخر نعتقد أنه أكثر اتفاقاً مع الأحوال والأشخاص .

(١) فرجوع صلاح الدين عن الشوبك سنة ١١٧١ م وعن الكرك سنة ١١٧٣ م كان أمراً طبيعياً ولولا تلك القصة التي يذكرونها عن اجتماعاته بأمرائه وما يعزونه اليهم من الأقوال لما كان هناك ما يستغرب في عمل صلاح الدين . فالشوبك والكرك حصنان من أمنع الحصون في فلسطين وكان فتحهما من أكبر الفتوح التي تغنى بها الاسلام فيما بعد بعد جهود عظيمة ومحاولات متكررة أخفقت مرارا وكان يحجمها جماعة من المحاربين المستبسلين الذين يقاومون

حتى لا يكون دونهم ما يقاومون به من مال أو دم وكان صلاح الدين في سنة ١١٧١ م خارجاً من إحداث انقلاب بمصر وازالة دولة لها في البلاد أصل ثابت من قرنين وكان لها أتباع وأنصار يفكرون في الدفاع وإرجاع الأمر الى ما كان عليه ولا سيما أنه كان إذ ذاك حديث عهد بثورة السودانيين ولا يأمن أن يترك مصر إلا قليلاً ففى سنة ١١٧١ م عند ما حصر الشوبك رأى أن الحصن لن يسلم إلا بعد أمد قد يطول وأن نور الدين قد يشترك في الحرب فيجعلها واسعة الدائرة فينتقل من ميدان الى آخر وهو الرجل الذى يحب الجهاد ويجعل حياته له ، فأثر الرجوع وأرجأ فتح ذلك الحصن الى وقت آخر ولو كان يخشى الاقتراب من نور الدين فما كان الذى دعاه أن يفكر مبتدئاً في غزو فلسطين ؟ أما كان يؤثر من أول الأمر إبقاء الصليبيين بينه وبين من يخافه ؟

(٢) وأما في سنة ١١٧٣ م فقد كان صلاح الدين يشم خطراً في الجحولا تفوته حركة من حركات صديقه وعدوه على السواء — فلما دعاه نور الدين الى حصار الكرك لم يستطع أن يتمتع حتى لايسىء سيده به الظن فذهب الى هناك في شوال وكان هو السابق وظل على الحصار وحده مدة شهرين ثم أقبل نور الدين بعد ذلك متأخراً في ذى الحجة .

ورأى صلاح الدين أشاء ذلك امتناع الحصن عليه ، ولعل نور الدين لو كان اشترك معه من أول الأمر لكان الحصن قد سلم أو لكان على الأقل هناك تساوي المجهود يبعث نور الدين على الاكتفاء وترك الحرب الى حين فتأخر نور الدين كان معناه أن غياب صلاح الدين عن مصر سيستمر الى مدة أطول ولا سيما وأن جيش نور الدين كان لا يزال جديد المهمة وهو يعرف أن نور الدين اذا بدأ الحرب فلن ينتهي منه إلا بعد أن يبلى بلاء ويعذر ولعله ينتقل من ميدان الى آخر ولن يستطيع صلاح الدين أن يترك الحرب اذا هو بدأ فيه الى جانبه لئلا يكون ذلك تخذيلًا . فآثر أن يتبع من أول الأمر ما تمليه الرجولة ويوجبه الحذر فأرسل في أدب معتذرا وأظهر خضوعه بما أرسل من هدايا وأنفذ رسوله رجلا يعرف ما كان عليه من صفات ولا يطعن أحد في إخلاصه وهو الفقيه عيسى الهكاري وكان رجلا شجاعا دينا فلو وجد شيئا على صلاح الدين من الخيانة لسيده لكان يفضي بذلك الى نور الدين إذ كان يعتقد أنه المجاهد في سبيل الله المخلص في غزواته القائم في عبادته الزاهد في دنياه . ولم يكن نور الدين في قلوب الناس ولا سيما الفقهاء بأقل مما كان صلاح الدين بل ان الناس جميعا كانوا أميل الى الخضوع له واتباعه مما كانوا يميلون الى الفتى الناشئ .

ولكن الفقيه لم يذكر إلا كل خير ولم نسمع عن نور الدين أنه قال إلا جواباً مرضياً .

ولكن كان حول نور الدين جماعة من أمثال اليازوقى الذين كانوا يرون صلاح الدين قد سلبهم ملك مصر ولا بد أن هؤلاء كانوا يحاولون ما استطاعوا أن يظهروا لنور الدين سوء نية منافسهم لعله يحقد عليه ويخلعه فيكون ذلك انتقاماً لهم منه . فجعلوا يفسرون حركات صلاح الدين بما شاءت لهم نفوسهم المغضبة .

ولا يبعد أبداً بل نرى أن تفسير حركات صلاح الدين بعدم رغبته في مقابلة نور الدين من وحي هؤلاء وإشاعاتهم .

أما قصة المجلس الذى جمعه صلاح الدين بعد رجوعه عن الشوبك فانها تشبه القصص التى نسمعها فى المؤلفات الخيالية حتى أنها لتورد الألفاظ التى قالها أيوب لابنه فى خلوة وهو ينصحه ألا يقول شيئاً فى العلن إلا الخضوع لنور الدين ويؤكد له فى نفس الوقت أنه لو أراد نور الدين قصبة من مصر لحاربها عليها . وأن نجم الدين الحريص ليكون ممن ينصح بشئ ويخالفه ويعلم وهو محتاج الى التعلم لو كان أسمع أحداً ما قاله لابنه إذ ذاك فى خلوته . وإلا أفليس من المضحك أن يعرف مؤرخ ما قاله نجم الدين لابنه فى خلوة ولا يعرف ذلك نور الدين نفسه .

على أن هناك ما يفيد أن سيرة ذلك المجلس وما وقع فيه لم تكن إلا خيالاً فإن ابن شدّاد وهو القاضي بهاء الدين مؤلف سيرة صلاح الدين وصاحبه في مسيره وحروبه لم يذكر شيئاً عن ذلك المجلس ولم يذكر والد صلاح الدين ولا نصيحته ولكنه نقل إلينا وهو مصدق فيما يقول سمعته — قال سمعت صلاح الدين نفسه يقول ”كان بلغنا أن نور الدين يقصدنا بالديار المصرية وكانت جماعة أصحابنا يشيرون بأن نكاشف ونخالف ونشق عصاه ونلقى عسكره بمصاف نردّه اذا تحقق قصده وكنت وحدي أخالفهم وأقول : لا يجوز أن يقال شيء من ذلك“ .

فالحقيقة هي إذا أن نور الدين تغير على صلاح الدين وأساء الظن به لأنه حمل على أن يؤول حركاته وأعماله بغير ما قصده — وعزم على السير اليه وصلاح الدين صابر لا ينوى مقاومة ولا يظهر إلا الخضوع ولا يبطن إلا الإخلاص .

(٣) و (٤) وأبلغ من كل ذلك ذكر فتح النوبة والقول بأن ذلك كان مقصوداً به فتح أرض تكون ملجأً من نور الدين ، والواقع أن تلك الحملة لم تكن إلا لتطهير جنوب مصر من بقايا الحرس السوداني الذي كان لا يزال منه بقية نائرة بالصعيد حتى تكون مصر كلها مطمئنة له من البحر الى أقصى حدودها الجنوبية .

وأما فتح اليمن فمن الغريب أن يستأذن صلاح الدين نور الدين لو كان عنده نية المخالفة ومن الغريب أن نور الدين يأذن له بإرسال الجيش الى هناك لو كان حقيقة يعتقد أن ذلك الرجل يخون .

فالواقع الذى نراه هو أن سوء ظن نور الدين لم يبدأ منذ سنة ١١٧١ م بل انه قد بدأ يتجسم له من بعد موقعة الكرك وبعد السماح بحملة اليمن سنة ١١٧٣ م وأن ذلك الظن لم يتجسم إلا من سعى أعداء صلاح الدين ومنافسيه وأن صلاح الدين ظل الى نهاية الأمر لا يتأثر بما يشاع عن تغير نور الدين عليه . وأما أبوه نجم الدين رحمه الله فلم يكن له من أمر ذلك المجلس المزعوم شيء بل نعتقد أنه عندما مات بمصر أثناء المدة التى كان فيها صلاح الدين عند الكرك أو عائدا منها سنة ١١٧٣ م كان لا يفكر تفكيراً جدياً فى أن هناك سوء ظن بين ابنه وبين سيده .

٦ - ثورة المصريين

لعل صلاح الدين لم يكن فى حياته كلها فى خطر أعظم مما كان فيه فى سنة ١١٧٣ م (٥٩٩ هـ) وسنة ١١٧٤ م (٥٧٠ هـ) . فان عوامل كثيرة اجتمعت على عداوته ولما لم تجد فرصة تمكنها منه علنا فى ميادين النضال عمدت الى الدسائس والمؤامرات فكانه

في مصر حزب موال للشيعية العلوية أصحاب الخلافة المنقرضة ، كان في جيش صلاح الدين جماعة من الجند لم ينالوا ما يرضيهم فكروهوا حكمه ، وكان بقية من الجند السودانيين الذين يكرهون صلاح الدين لا يزالون بمصر ، وكان هناك الفرنج وقد رأوا بلاءه فيهم عند دمياط ، وكذلك كان هناك الاسماعيلية الفدائيون الذين كانوا يميلون الى الفتك بمن قضى على دولة علوية مذهبها الديني مثل مذهبهم .

وكان صلاح الدين صاحب ذكاء متوقد وحذر لا تفوته فائسة فأدرك أن بالحق أمورا تنذر بالخطر ولهذا لم يأمن أن يبقى خارج مصر طويلا فرأيناه يعود من الكرك سنة ١١٧٣ م قبل أن يتم فتحها ولم ينتظر لكي يشترك في الحرب مع نور الدين كما مر .

وقد حسب أعداؤه أن الفرصة سانحة لبعده جزء كبير من الجيش في حرب اليمن (سنة ١١٧٣ م — ١١٧٤ م) فأحكموا أمرهم ودبروا الوثوب به . ولا يسعنا إلا أن نبصر ما ارتكبه صلاح الدين من الخطأ بتسيير حملة اليمن في ذلك الوقت مع توقعه الخطر — ولا نجد مبررا لانفاذ تلك الحملة الى ذلك القطر البعيد إلا رغبته في أن يملك طرف البحر الأحمر من الجنوب كما ملك ثغر أيلة على رأسه من الشمال لينع الخطر الذي كان في ذلك الوقت يهدد البلاد المقدسة من ناحية المسيحيين ، اذ كانوا يفكرون في حشد أساطيل عظيمة

فى ذلك البحر لغرض الاغارة على المجاز وقبر النبى . ولكن لحسن
حظه علم بأمر المؤامرة قبل أن تنفذ خطتهم المحكمة وذلك بسعى
زين الدين على بن نجا الواعظ، فقبض على رؤساء المتآمرين فصلبهم
بعد أن حاكمهم وأقروا وبذلك قضى على المار قبل أن تشب . ولكنه
إذا كان قد قضى على رأس الحية فقد خلم ذنبها، وسيجد فيما بعد
صعوبة فى تخطيم ذلك الذنب كما سيأتى .

وكان أكبر من صلبهم من رؤساء المؤامرة عمارة ايمنى الشاعر
وهو الذى حسن الى شمس الدولة أخى صلاح الدين فتح اليمن وكان
يباهى بأنه هو الذى أفسح السبيل للمتآمرين بأن حمل شمس الدولة
على الاقدام على حملة اليمن وبذلك أبعد جزءا كبيرا من الجيش عن
مصر . وكان لعمارة أشعار فى الفاطميين منها :

يا عاذلى فى هوى أبناء فاطمة لك الملامة ان أقصرت فى عدلى
بالله زرساحة القصرين وابك معى عليهما لا على صفيين والجمال
وقل لأهلها والله لا ألحمت فيكم جروحي ولا قرحى بمن دمل

وقد أظهر صلاح الدين كمادته حكمة عظيمة فى أنواع العقاب
فانه بعد أن صلب القادة الكبار اكتفى بأن نفى من اشترك فى المؤامرة
من أجناد المصريين الى أقاصى الصعيد واحتيط على من بالقصر
من سلالة الفاطميين — وأما الذين نافقوا عليه من جنده فلم يتعرض ..

لهم ولم يعلمهم أنه علم باشتراكهم وآثر أن يستميلهم بإزالة ما يشكون منه وحدث ذلك كله في أبريل سنة ١١٧٤م (رمضان سنة ٥٦٩هـ).
ولكن الفرنج لم يعلموا أن المؤامرة قد كشفت وقضى عليها .
ولهذا جاءوا من البحر الى الاسكندرية في يوليو سنة ١١٧٤م (ذى الحجة سنة ٥٦٩هـ) يحسبون أنهم سيضربون جبهة صلاح الدين يصدعونها على حين يخرح أحلافهم الخونة من خلفه فيجهزون عليه .
ولكن خاب ما أملوا .

٧ - وفاة نور الدين

بعد القضاء على تلك المؤامرة بنحو شهر ونصف أتى الى صلاح الدين نعى نور الدين العظيم وانا لا نستطيع إلا أن نذكر بالاعجاب ذلك البطل (نور الدين) الذى جعل كل حياته وقفا على الدفاع أمام قوم أغاروا على بلاد ليست لهم وأتوا ما أتوا من المظالم فى شعب يرى نفسه حاميا له وملزما بالدفاع عنه . وقد كانت حياته سلسلة حروب لا بأس من أن نسميها جهادا . وقد كان نجاحه فيما قصد اليه نجاحا كبيرا فكأن دولة عظيمة وردت تيار الانتصار نهائيا من جانب الصليبيين فأصبح فى جانب دولة الاسلام وكان يدعى له على منابر مصر والشام الى الموصل واليمن . على أن

دولته كانت على النظام الاقطاعي يحكم كل إقليم منها حاكم شبه مستقل يدين له بالدعوة ويرسل اليه العسكر والمال كلما لزم له حرب . وكان نور الدين في خلقه مثلاً من الأمثلة العليا في الزهد في غير مرارة ، والتدين في غير تعصب ، والعدالة في غير تشدد . وكان هو نفسه في مقدمة المحاربين لا يتأخر بل يحارب بنفسه غير خائف أن يصاب ولا يطيع من ينصحه بالاحتباس ولا أدل على روحه من أن نورد ما قاله مرة وقد نصحه ناصح أن يدع الحرب خوف أن يصاب فيكون في إصابته هلاك المسلمين فقال « ومن محمود حتى يقال له هذا؟ ان من قبلى من حفظ البلاد والاسلام وذلك هو الله » .

ولا ندرى كيف كان وقع نبأ موته على صلاح الدين وأكبر ظننا أنه أساءه أيما أساءة وأحزنه أعظم حزن^(١) على أننا لا نقدر أن نتناسى أن موته أخرج صلاح الدين من خطر عظيم ، وذلك أن الخلاف الذى دب بينه وبينه بعد سنة ١١٧٣ م كان لابد يصل الى حد بعيد لو بقى نور الدين حياً . ومن يدري هل كان صلاح الدين يحتفظ الى آخر الأمر بما سار عليه الى ذلك الوقت من الحفاظ والاعتدال ؟

(١) ظل صلاح الدين يذكر مولاه نور الدين بكل حسنة الى آخر حياته وتدل جميع أقواله بعد ان صار السلطان الأعظم في العالم الاسلامى على أنه ما زال يحس الى ذكرى سيده وبقُدس فيه البطل الزاهد العادل .

٨ — بدء العصر الثاني من حياة صلاح الدين

بعد أن مات نور الدين تركت الدولة الإسلامية الكبرى لابنه الملك الصالح اسماعيل وهو صبي يبلغ من العمر نحو إحدى عشرة سنة وجعل مقامه بدمشق وحلف له الأمراء الكبار وضربت النقود باسمه في كل جهة من أول مصر إلى أطراف الشام . وكان في البلاد الشامية والجزيرة عواصم ثلاث أخذت القيادة في حوادث تلك الأيام وهي دمشق وحلب والموصل وكان أول صوت اذن بالاضطراب في دولة نور الدين آتيا من نحو الموصل إذ أن سيف الدين غازي ابن أنحى نور الدين (أى ابن عم الملك الصالح) أسرع الى الاستقلال بما يليه من البلاد وأعلن نفسه أميرا على الجزيرة وكان حوله من أمرائه من يحسن له أن يذهب الى الشام ويستولى عليها فليس بها من مانع . ولكنه آثر أن يقنع بالجزيرة وبقيت الشام في أيدي الملك الصالح أو بقول أدق بقيت في أيدي الأمراء الذين استولوا على الملك الصالح تحت اسم الوصاية عليه وتولى تربيته . فكان الأمر في الواقع في يد شمس الدين محمد بن عبد الملك المشهور بابن المقدّم بدمشق . وشمس الدين على بن الداية وهو أكبر الأمراء النورية وكان في حلب . وقد شهد الفرنج ما أصاب دولة نور الدين من الصدع بعد موته ، فان مصر صارت مستقلة

ولو أن صلاح الدين كان لا يزال خاضعا في الظاهر للملك الصالح داعيا باسمه على منابره، وكانت الجزيرة في يد سيف الدين غازي وحلب في يد شمس الدين بن الداية ودمشق والملك الصالح بها في يد شمس الدين محمد ابن المقدم . وكان بين هؤلاء جميعا تنافس على أيهم يسود وكل منهم ينظر الى الآخر مترقبا حذرا أن يثب به اذا هو لقي منه غرة . فانتهاز الفرنج الفرصة وألقوا بفرسانهم الى دمشق وما جاورها، ولم يستطع شمس الدين ابن المقدم أن يقاوم هجماتهم، أولعله كان يستطيع ولكنه آثر أن يذل لهم زعما منه أن الأمراء في الموصل وحلب، وصلاح الدين في مصر، اذا رأوه منشغلا في حرب الفرنج يتنهزون فرصة إنشغاله فيهبطون على ما في يده فيسلبون طعمته . وهكذا يضمحل أمر الدول اذا هوى في أيدي قوم لا يتطلعون الى أبعد من أنوفهم ولا يدركون إلا ما تقدره نفوسهم الصغيرة .

فصالح شمس الدولة بن المقدم الفرنج على مال يعطيه لهم وأسرى يطلقهم ممن كانوا عند المسلمين منذ حروب نور الدين .

وأعقب ذلك بالشام تنافس شديد بين أمير حلب وأمير دمشق على أيهما يستولى على الملك الصالح وأدى ذلك الى أخذ الملك الصالح الى حلب ثم الى مفاوضة مع سيف الدين صاحب الموصل أن يأتي الى الشام لكي ينجي دولة نور الدين من سفه أمرائه

المتنافسين ولكن سيف الدين أبى أن يتدخل فى ذلك فارتدت.
 المفاوضات الى جهة مصر وبلغت الدعوة صلاح الدين لياقى الى الشام.
 وكان قد فرغ من إصلاح أمر مصر وتثبيت قواعد دولته فيها .
 فلبى الدعوة وسار نحو دمشق وبذلك بدأ أول خطوة فى سبيل.
 التدخل فى أمر حكام الأنحاء الأخرى من الدولة الاسلامية ولن
 ينتهى السير به فى ذلك السبيل دون توحيد جميع الدولة فى يده.
 فتكون قوة واحدة للجهاد كما كانت فى يد نور الدين . وقد وقع ذلك.
 ما بين سنتى ١١٧٤ م - ١١٨٦ م .

٩ - الافرنج أمام الاسكندرية

كان موت نور الدين كما قدمنا مؤذنا بسعى الفرنج من جديد.
 لكي يستردوا ما أخذهم منهم ذلك الملك العظيم فناروا بالشام
 وذهبوا الى قرب دمشق وكان أبناء نور الدين ووزرائهم على غير
 ما عهد الفرنج من أبيهم العظيم وكذلك ظن الفرنج الذين اشتركوا
 فى التآمر على صلاح الدين كما أسلفنا أنهم يستطيعون عند ذلك أن.
 يضربوا ضربتهم لتكون قاتلة . فاجتمع لهم سفن كثيرة من الشام.
 وصقلية بلغت عدتها نحو ٢٨٢ سفينة وجاءوا الى الاسكندرية.
 ونصبوا المجانيق والدبابات عليها فى يوليو سنة ١١٧٤ م ولكن شتان.

بين ما لقيهم به صلاح الدين من العدة وبين ما لقيهم به وزير الملك الصالح بدمشق فقد كان أهل مصر واثقين بقائدهم وحاكمهم ولهذا أبدى أهل الاسكندرية من الشجاعة ما أدهش المهاجمين ثم وصلتهم نجيدات العسكر فإدهم ذلك صبرا في الحرب ثم بلغ الأمر الى صلاح الدين فأسرع بجيش الى الاسكندرية وبالغ في الاحتياط فأرسل جيشا آخر الى دمياط فلما عرف المدافعون مسيره اليهم دبّت فيهم حماسة عظيمة وأبلوا بلاء حسنا فهزم الفرنج وغرقت لهم سفن كثيرة وفشلت حملتهم فشلا تاما ولسنا ندرى ماذا كان يحدث لو وقع الهجوم من أربعة شهور قبل أن يقضى صلاح الدين على رءوس المتآمرين في داخل البلاد .

١٠ - استتباب الأمر لصلاح الدين في مصر

دخل صلاح الدين مصر أول مرة مع عمه سنة ١١٦٤ م ودخلها آخر مرة مع عمه أيضا سنة ١١٦٩ م ثم أقام بها وزيرا للعاضد الى سنة ١١٧١ م ومن ذلك الوقت صار فيها شبه ملك مستقل خاضع لنور الدين على الأسلوب الأقطاعي وقابل مشا كل مصر العديدة متصرا في كل موقف بغير أن يحدث زعجة أو يثير ضجة، بل لقد وقف وهو وزير بين نور الدين السني المجاهد وبين العاضد الفاطمي

واستطاع بكياسته وحسن اختياره أن يحفظ توازنه ويسير الأمور سيراً ناعماً فلم يحقد عليه العاضد بل ظل على تقديره والاخلاص اليه حتى مات وليس أدل على ذلك من طلبه رؤيته وهو في أشد حال من مرضه قبل وفاته . وكذلك لم يجد نور الدين في سلوكه ما يجعله يندم على اقرار أمره والموافقة على تقديمه أمام الجلبة من كبار أمرائه . ثم أصبح بعد موت العاضد ملكاً على مصر فعلا مع بقاءه على الخضوع لنور الدين ، وبدأ يشترك في أمور الدولة الإسلامية العامة في حين ضبطه لمصر في داخلها وخارجها ، فاذا قلنا ان سياسته كانت تامة النجاح لم يكن في ذلك شيء من المبالغة ، اذ ما أتى آخر عام ١١٧٤ م حتى كان قد أسس دولة فنية على رأسها جيش واثق برئيسه وتدعمها سياسة اقتصادية حكيمة ملأت خزائن الدولة بغير أن تنسى الإصلاح والتعمير واذا كان لرأى الشعب في تلك العصور قيمة فقد أدرك الشعب المصرى أن فوقه رجلاً ولا كالرجال بل هو القائد الفذ والمصلح الذى لم يعهد مثله فهذأت أحوال مصر وسارت في سبيل الاطمئنان الذى سيعدها لاستقبال عصرها المجيد أيام دولة بنى أيوب ومن جاء بعدهم من السلاطين المماليك ، فلا نسمع بعد بثورة إلا كان القضاء عليها أمراً لا يحتاج لأكثر من أيام كثورة قامت بها البقية القليلة من أعداء دولة صلاح الدين وكانت في الصعيد.

بقيادة رجل يعرف بالكثرة فلم تلبث أن قضى عليها قضاء يدل على أن أساس الدولة قد صار راسيا متينا .

ولم ينس صلاح الدين أن يجعل لمصر حصنا كما كان لبلاد الشام حصون ولم يرض عن سور القاهرة ولا عن حصنها فصعد في الجبل واختار أقرب رأس منه مشرف على القاهرة وفكر في أن يبنى عليه قلعة ولا نقدر إلا أن نرى في عزمه هذا أثرا من آثار العصر وروحه فان المحاربين عند ذلك كانوا لا يثقون إلا في القلاع سواء في ذلك الفرنج والمسلمون ، وكان الشرق من الشام الى فارس لا يرى العز والمنعة إلا في القلاع في تلك العصور المضطربة ، وكانت مصر بلادا سهلة فمن ملك ناصية الجبل المطل على عاصمتها استطاع أن يمتنع على المغير الأجنبي اذا غزا أرباض القاهرة وكذلك يستطيع من يملكها أن يظهر لكل ذي عينين في تلك العاصمة أن هناك قوة كبيرة ماثلة أمامه يقبض عليها رأس الدولة ويقدر أن يقذف بها على من يخالفه .

ولكن مشا كل الدولة الاسلامية بعد موت نور الدين دعت صلاح الدين الى أن يترك مصر وأمورها الى حين ، ولهذا لم يبدأ ببناء القلعة والسور الذي عزم على إقامته بينها وبين القاهرة بل أجل ذلك حتى يقابل الأخطار التي كانت تهدد دولة نور الدين



باب زويله (مثل من بناء سور القاهرة)

فأسرع الى الثغرة ليسدها لأنه شعر أنه وارث العبد بعد وفاة العميد الأول (نور الدين) وأن عليه واجبا كبيرا وهو جمع الأزمات في قبضة واحدة ليم عمل السابقين في جهاد أعداء الدولة الإسلامية .

١١ - حروب الشام الأولى

كانت رحلة صلاح الدين الأولى بالشام أشبه شئ برحلة زيارة إذ أنه لم يعدّ عدّة حرب ولم يظهر بمظهر الفاتح وإنما ذهب إجابة لدعوة توجهت اليه ووجد في البلاد التي دعتة استعدادا للانضمام تحت لوائه وسرورا بالاتحاد مع دولته المصرية العظيمة .

سار في نحو سبعائة فارس في أواخر عام ١١٧٤ م (٥٧٠ هـ) حتى بلغ دمشق ولم يجد حربا لا من أصحاب البلاد المسلمين ولا من المسيحيين الذين على جانب طريقه فخرج اليه أهل دمشق وعسكرها ورحبوا به وأعلن أنه إنما جاء في خدمة الملك الصالح ونصرته وسلمت له القلعة بدمشق وحدث الانقلاب بغير سفك دماء . ثم سار الى الشمال نحو حمص وحماه وهو يردّد إعلان أمره وأنه إنما جاء في سبيل نصرته الملك الصالح ليمنع عنه جور ابن عمه سيف الدين . غازی من جهة ، واستبداد أمرائه من جهة أخرى ، واعتداء الفرنج

على بلاده من جهة ثالثة . وقد قاومته قلعة حمص حينا الى ما بعد حصار حلب ثم سلمت اليه . ولكن انضم اليه صديقه القديم (جوردريك) وكان حاكما على قلعة حماه وسارا معا الى حلب وكان الأمراء الذين مع الملك الصالح يفرعون من أن يستولى صلاح الدين على حلب خوفا من أن يكون الملك الصالح في يده دونهم ، فقاوموا وجعلوا الملك يستثير حمية أهل حلب للدفاع عنه حتى ساعده مستبسلين وخرجوا الى حرب صلاح الدين — وقد بذل أمراء حلب في ذلك الوقت همه في الدفاع عن أنفسهم لم يكن صلاح الدين يتوقع مثلها منهم فقد كان الأمر أمر حياة أو موت لهم . ولهذا أرسلوا باسم الملك الصالح يستنجدون بمن يتوقعون منهم المساعدة لايالون بشيء إلا بأن يخلصوا من خطر صلاح الدين . فأرسلوا الى الفرنج يطلبون مساعدتهم وكان كبيرهم (الكونت ريمون) حاكم طرابلس ويسميه العرب القمص ريمند ، وكان اذ ذاك أكبر أمراء ملك الفرنج المجذوم (بلدوين الرابع) . وكذلك أرسلوا الى سنان مقدم طائفة الباطنية الفدائيين الاسماعيليين لكي يرسلوا فتاكهم يقاتلون الرجل المخيف الذي قد يعجزون هم وحلفاؤهم عن مقاومته صراحة في ميدان النضال الشريف وأرسلوا الى جهة ثالثة غير مؤقنين منها مساعدة وهي الموصل حيث كان سيف الدين غازي .

فكان صلاح الدين يحاصر المدينة ويقابل دفاع أهلها الشجعان في حين كان القمص ريمند يتحرك عليه ليأتي إليه من الجنوب فيقطع عليه خط الاتصال مع قاعدة ملكه وفي الوقت نفسه أرسل رئيس الاسماعيلية جماعة من رجاله فوشبوا بصلاح الدين ولكنهم لم يقدروا أن يصلوا إليه . فرأى صلاح الدين أن قوته أقل من مقابلة كل هذه المقاومة التي ما كان يتوقعها وخشى من حركة الفرنج في جنوبه فرفع الحصار عن حلب وعاد الى حمص ليقابل الفرنج ولكنهم عادوا ولم يخاطروا بحاربته عندما رأوه يتحرك ضدهم وأما هو فاعتنم الفرصة لكي لا يجعل من ورائه قلعة تهدد ظهره فاستولى على قلعة حمص التي كانت الى ذلك الحين تقاوم واستولى كذلك على بعلبك ثم عاد الى حلب بعد أن جمع من مصر إمدادا لجيشه وأعد العدة للنضال والحرب الذي لم يكن في نيته أول الأمر .

وقد كانت العداوة التي أظهرها أمراء الملك الصالح ومقاومتهم تلك التي استعانوا فيها بالفرنج والاسماعيلية ونزولهم الى وسائل يأبأها النضال الشرعى — لقد كان ذلك سببا في أن يقطع صلاح الدين اسم الملك الصالح وأن يعلن في خطبته استقلاله منذ سنة ١١٧٥م وقد خلع عليه الخليفة العباسى ولقبه سلطانا وأصبح له مكان شرعى فوق قوته الفعلية فلما عاد الى حلب كما تقدم وجد جنود سيف الدين غازى .

قد وصلت لأن ذلك الأمير قد تغلب عليه الخوف من صلاح الدين فبعد أن كان حذرا لا يريد التدخل في أمور الشام رأى أن يساعد الملك الصالح حتى لا يدع ملك صلاح الدين يقوى ويصبح خطرا على استقلاله في الجزيرة فقابل صلاح الدين جنود الموصل عند (قرون حماء) فهزمهم ثم عاد الى حلب فحاصرها حتى اشتد الأمر على من بها ففاوضوه في الصلح على أن يبقى كل من الجانيين ما في يده من البلاد وبهذا أصبح ملك صلاح الدين ممتدا من مصر الى حماء وجعل ينظم دولته الجديدة فولى على أقطاعها أمراء من أهله وممن يشق ٣٢٠

غير أن الصلح بين الجانيين لم يدم طويلا وكان نقضه على يد سيف الدين غازي صاحب الموصل إذ عاد بعد عام الى حلب وكان صلاح الدين مطمئنا الى المعاهدة التي أبرمها معه في العام الماضي فأرسل جنوده الى مصر وكانت تلك غرة منه لو عرف أعداؤه أن يتهموها ولكنهم لحسن حظه تباطئوا ولعل ذكر النصر الماضي الذي أحرزه صلاح الدين هو سبب ذلك التباطؤ الذي نشأ عن مبالغة أعدائه في الحذر. فوجد صلاح الدين زمنا كافيا لجمع الجنود والسير الى أعدائه والراحة بعد جهود السير السريع وكان لقاء جيش سيف الدين قرب حلب عند (تل السلطان) وهناك كان اسم

صلاح الدين وعدم ثقة جنود سيف الدين بقوادهم سببين داعيين الى الانهزام بغير مصاف وهرب سيف الدين عائداً في خوف الى الموصل تاركاً جيشه تحت أخيه عز الدين . وتبع صلاح الدين المنهزمين الى حلب وبعث بعوثه الى الحصون المجاورة مثل منبج واعزاز ففتحهما . وحدث له في حصار اعزاز حادث يستحق أن يذكر وذلك أن فتاكى الاسماعيلية نادوا مرة أخرى الى الوثوب به حتى أن أحدهم وصل اليه وضربه في رأسه بسكين ولولا المغفر لقتله فأمسك صلاح الدين بيده ولكنه لم يقدر على منعه من الضرب فكان يضربه في عنقه ضربات ضعيفة لم تؤثر فيه اذ كان عليه الكراغند يحميه واستمر الفتاك يحاول التخلص من قبضته ويضربه حتى أدركه بعض أمرائه فقتلوا ذلك الفتاك فهجم آخر عليه ثم ثالث فقتلا دونه ونجا صلاح الدين نجاة عجيبة . ولكنه مع ذلك بقى على حصار قلعة اعزاز حتى فتحها . فأصبحت حلب معزولة وسط أملاكه ورأى من بها ضعف موقفهم ففاوضوا في الصلح مرة أخرى . ومن العجيب أن صلاح الدين مع انتصاره ومع ما شاهده من دناءة أعدائه في التجائهم الى النذالة في الكيد له ونقضهم العهد معه نقول من العجيب أنه قبل مفاوضاتهم ولم يشتط عليهم في الشرط بل ترك لهم حلب ونزل لهم عن اعزاز اكراما لابنة

صغيرة لسيده نور الدين وكانوا أخرجوها اليه فطلبت منه تلك القلعة التي كاد يهلك في أثناء فتحها فأجابها الى ذلك وأضاف هدايا ذات قيمة مراعاة لذكرى أبيها واتفق الجميع في آخر يولييه سنة ١١٧٦م على أن يكونوا يدا واحدة على من ينقض العهد .

ولترك هذا التصرف بغير تعليق لعله ينبئ بشيء مما كان عليه صلاح الدين أو لعل فيه ردا بليغا على من يتهمة بقلّة الوفاء .

١٢ - موقف صلاح الدين

أمام أسرة نور الدين محمود

لا يضير الرجل العظيم أن يذكر له عيب ومتى كان الانسان كاملا؟ وهكذا أمر صلاح الدين فليس يضيره أن يقول قائل قد كان به نقص ولو كان ذلك النقص خلقيا . فكثيرا ما يعمد رجال الدول ولا سيما رجال السيف الى وسائل تأباها الأخلاق ولكن تبررها الحاجة العملية . فيمر عليها التاريخ متساهلا كأنما يهز رأسه مستسلما لطبيعة الأشياء ولكننا مع ذلك لا نرى رأى من يطعن على صلاح الدين في موقفه أمام أسرة نور الدين ويتهمة بقلّة الوفاء والمحمود فانا نرى الوقائع كلها تدل دلالة لا شك فيها على أن صلاح الدين كان دائما يؤثر أن يخسر شيئا من الدنيا في سبيل

الأخلاق والقلب وما كان هو ممن يتخطون الفضائل في سبيل شيء من الأشياء ولو كان مما يكبر في الأعين . حقا لقد سار صلاح الدين الى الشام واستولى على دمشق ثم وقف بعد ذلك وحارب جنودا اسمها جنود الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين . وهكذا يقول بعض القائلين لقد كان صلاح الدين رجل طمع في الدنيا فضحى من أجلها بما كان يجب أن يرعى من ذمة في بيت له عليه فضل النعمة والتربية .

لسنا ندري ماذا كان هؤلاء يريدون؟ استولى الملك الصالح اسما وتنافس على اسمه الأمراء أيهم يسود فيستعمل رقية ذلك الاسم في النفوذ الى غرضه ، وكان من وراء ذلك التنافس أن أصبحت الدولة الاسلامية واهنة محطمة تمتد يدا سفلى الى أعدائها الفرنج بعد أن كانت تملى عليهم ارادتها أيام نور الدين . وقد كان صلاح الدين شريكا في اقامة تلك الدولة العظيمة وشهد من نصرها ما كان يجعله يدرك مرارة الموقف الجديد من الخذلان ثم رأى الأمراء المتنافسين وهم يتهاقون على أشياء لا يقيم هولها وزنا وما كان نور الدين العظيم ليرضى عن ابنه ومن استولوا عليه لو أنه شهد ما صنعوا . ولهذا نرى أن صلاح الدين كان يخطئ أخفش خطأ لو هو رضى بما وقع ولم يحترك يدا لمنع الصرح المجيد من أن يهوى الى الأرض محطلا .

وكان من حسن حظ دول الاسلام أنه اتبع ما أملاه عليه قلبه العظيم ولم يخش تهمة يتهمه بها جانب من الجوانب ما دام هو يحس من نفسه شرف ما هو صانع وخلص نيته في القصد الى المصلحة .

١٣ - فترة السلام

إذا قلنا أن صلاح الدين أقبل منذ سنة ١١٧٦ م (٥٧٢ هـ) على فترة سلام دام نحو ست سنين الى سنة ١١٨١ م (٥٧٧ هـ) فليس معنى هذا أنه لم يحارب طول تلك المدة، إذ أنه لم يخل عام من حياته من حرب منذ دخل ميدان العمل . وقد كان عصره عصر كفاح مستمرّ وعصر اضطراب وثوران في داخل النفوس واضطراب وثوران في العالم الخارجي ، وقد كان هو نفسه نتيجة ذلك الاضطراب الى حدّ عظيم . وإذا فمعنى أن هذه الفترة كانت فترة سلام ينصرف الى علاقاته بالدول الاسلامية فانه يظهر في هذه السنين الست بمظهر المصلح الداخلي الذي يريد أن يقيم دولته على قواعد ثابتة من القوة الحقيقية قوة الثروة والقانون . فكان يتردد بين مصر والشام يصلح من أمر مصر بحسب ما تقتضيه حاجاتها الزراعية ويحاول أن يحصنها تحصينا يمنع اقليمها السهل أن يكون طعمة للغيرين ولم ينس أن طبيعتها تستلزم حكومة موحدة قوية .

المركز فقلل من الأقطاع فيها وجعل أمراء الأقطاع الذين فيها لا استقلال لهم ولا تصرف الى جانب الحكومة المركزية وجعل يقيم فيها المدارس والمستشفيات وأمثالها من مستلزمات المدنية المستقرة. على حين كان يصلح من أمر بلاد الشام بحسب ما يقتضيه موقعها اذ كان ذلك القطر جبهة الاسلام وميدان النضال بينه وبين القوة المسيحية المغيرة فكان من الطبيعي له أن تغلب عليه الصفة الحربية فأقطع بلاده لأمرائه وجعلهم أشباه مستقلين تحت زعامته لا يطمع منهم في أكثر من أن يتبعوه الى الحرب ويظلوا معه حتى يعطيهم الدستور فيعودون الى بلادهم . وكان في كثير من الأحوال يدارى هؤلاء الأمراء ويقنع منهم بأن يخضعوا راغبين تحاشيا لكثرة الاحتكاك معهم وهم قوم قد جرأتهم كثرة الحروب وضراهم النضال المستمر فلم يكن نضالهم بالهين ولا شوكتهم باللينه .

وأعل انصراف صلاح الدين الى إصلاح دولته قد جعل جيرانه المسيحيين يشعرون بخفة وطأة الدولة الاسلامية ، أو لعل ظروف أوروبا ووجود حركة جديدة بها ترمى الى تعزيز كلمة المسيح في الشام وتجديد قوة الصليبيين التي حطمها نور الدين ، أو لعل كلا السببين عملا معا على أن يتجترأ الصليبيون ويغيروا على ما يليهم من البلاد الاسلامية التي أخذت منهم في مدة السنين الماضية ، ولهذا تجد

أن صلاح الدين في هذه السنوات الست لم يكن في سلام تام ولكن أكثر الحروب التي خاضها كانت مع المسيحيين ولم يكن هو البادئ بها بل كان في أغلبها مدافعا .

على أنه كان بين حين وحين يدخل في نضال هين مع بعض الأمراء المسلمين إما لخروج أمير من أمراء أقطاعه عليه وإما لتمنع جار عن أداء واجب تعهد به .

كان أول عمل اهتم له السلطان بعد صلح سنة ١١٧٦ م محاولته القضاء على الاسماعيلية لتكرر اعتداء فتاكهم عليه . وكان لهم قلاع بالشام أكبرها (مصيات) فذهب اليها ونهب عسكره منها غنائم كثيرة واكتفى بهذا المقدار ورجع عنهم بشفاعة خاله .

وبعد ذلك بدأت أول حلقة من سلسلة مواقعه مع الفرنج وكان الحرب بين الطرفين سجالا ولكن صلاح الدين ابتداء حروبه بأنهزام عظيم سنة ١١٧٧ م (٥٧٣ هـ) عند الرملة وكان ذلك الانهزام نتيجة نقص في الاحتراس وتراخ في النظام عندما كان جيشه يعبر نهرا . وقد قتل في تلك الواقعة جماعة من أهله وأسرى غيرهم وكان من أعز الأسرى عليه الفقيه المحارب عيسى الهكاري صديقه القديم الذي كان له يد كبرى في منع خروج الأمراء عليه عندما تولى الوزارة بعد موت عمه شيركوه ، وقد افتداه السلطان بستين ألف

دينار . وكانت كسرة الرملة ذات أثر كبير في نفسه حتى أنه ذكرها لأخيه شمس الدولة تورانشاه في خطاب قال فيه :
 ”ذكرتك والخطى يخطر بيننا وقد نهلت منا المثقفة السمر“
 ويقول أيضا : ”لقد أشرفنا على الهلاك غير مرة وما أنجانا الله إلا لأمر يريده سبحانه“ .

وقد أطمعت واقعة الرملة المسيحيين فساروا الى حماه وكان صاحبها خال صلاح الدين «شهاب الدين الحارمى» ولكن حظ الافرنج كان هذه المرة أقل سعدا فانهزموا بعد أيام أربعة، وساروا الى قلعة حارم (بقرب حلب) وهى داخلة فى دولة الملك الصالح — فلم يقدروا على أخذها كذلك ، وأغاروا على حمص فاكتفوا بنهب ما وصلت اليه أيديهم .

وكان صلاح الدين قد عاد الى مصر بعد كسرة الرملة ليصلح ماأفسدته تلك الهزيمة ولم يطل مكثه بها بل عاد الى الشام وكانت عودته فى الوقت المناسب لأن الصليبيين كانوا يسرون بين حلب ودمشق فى جرأة لم تعهد منهم منذ نصف قرن . ومنذ عودته الى الشام رجحت كفة المسلمين فهزموا أعداءهم مرة قرب دمشق سنة ١١٧٨ م (٥٧٤ هـ) وسار صلاح الدين بعد ذلك الى حصن كان الفرنج بنوه بقرب دمشق واسمه مخاضة الأحران وهناك كانت

موقعة كبرى سنة ١١٧٩ م (٥٧٥ هـ) هزم فيها الفرنج وأسر كثير من أبطال الصليبيين مثل مقدم الداوية (رئيس فرقة التبل أو المعبد)^(١) ومقدم الاسبتارية (رئيس فرقة القديس يوحنا)^(١) و (هيو)

(١) بعد إنشاء الامارات الصليبية الأربعة لم تقطع البعوث الصليبية عن الحجى الى الشام لامتداد الجيش المحارب ضد المسلمين ولكن بعد نحو ثلث قرن من إنشاء تلك الامارات ذهب الجيل الأول من أبطال الحرب الأولى وشعر المسيحيون بالنقص الذى طرأ على صفوفهم وكان فى أوروبا منذ القرن العاشر حركة اصلاح فى الدين كانت ترمى الى اعادة الفصيلة المسيحية بإنشاء الأديرة والطوائف الدينية (النسك والرهبان) على مبادئ الزهد والفضيلة ، فلما انصرفت الهمة الى الحروب الصليبية كان من الطبيعى لأوروبا أن يفكر قادتها من المتحمسين وأكثرهم من رجال الدين فى إنشاء فرق من رهبان محاربين يجمعون بين فضائل الزهد والنسك وبين فضائل الانتصار للدين وكانت نتيجة تلك الحركة طوائف أكبرها طائفة التبلار أو فرسان المعبد ويسمىهم العرب (الداوية) وينسبون الى التبل أو المعبد وهو معبد سيدنا سليمان حيث أقامت طائفتهم ثم طائفة الهسبتاليين أو فرقة القديس يوحنا ويسمىهم العرب (الاسبتارية) وينسبون الى مستشفى بناء تجار ايطاليون ونسبوه الى القديس يوحنا تبركا . وكانت الفرقه فى أول أمرها تقيم فى بنائه فأطلق عليها اسمه .

وكان رهبان هتين الطائفتين من أكبر العاملين على الدفاع عن المسيحيين بالشام مدة قرب تقريبا اذ كانوا هم العمود الفقري لجيش الصليبيين ويعرفون بالفضل والاستقامة والزهد والشجاعة وقد أقر المسلمون أنفسهم بذلك رغم العداوة التى كانت بين الجانبين .

صاحب طبريه وما زال صلاح الدين بعد ذلك النصر حتى فتح الحصن (مخاضة الأحران) ودمره وألحقه بالأرض . ومنذ ذلك الحين استمر الرجحان الى جانب الدولة الاسلامية وأخذ صلاح الدين خطة الهجوم وكان يده اليمنى فى هذه الحروب الأمير عز الدين (فرخشاه) ابن أخيه (شاهنشاه) وكان بطلاً أظهر مقدرة كبرى فى موقعة دمشق سنة ١١٧٨م وموقعة مخاضة الأحران سنة ١١٧٩م وقد جعله صلاح الدين أميراً على بعلبك ومن هناك جعل يهوى على ما جاوره من بلاد الفرنج مثل الكرك سنة ١١٨١م وكان من أمنع حصون الفرنج وصاحبها البرنس ارناط (رجنالد دى شاتيون) وهو من أشجع أمراء الفرنج كما كان من أقسامهم وأكثرهم غدراً .

وكان صلاح الدين فى أثناء هذه الحروب غير خالص من المتاعب مع جيرانه المسلمين ولكن يجب أن نذكر أن الملك الصالح وسيف الدين غازى (الثانى) بقيا على عهديهما الى أن لحقا برهما وسواء أكان ذلك برا بالعهد أم خوفاً من النضال الذى لا أمل للانتصار فيه فإن صلاح الدين لم يذم جوارهما بعد صلح سنة ١١٧٦م وكان أكبر نضاله مع صاحب قونية وهو (قلج أرسلان) ولا حاجة بنا أن نقول أن قلج أرسلان رأى بعد قليل أن الحكمة فى أن يتثنى أمام قوة جاره العظيم .

١٤ - أعمال صلاح الدين بمصر

بين سنة ١١٧٦ م - ١١٨١ م ٥٧٢ - ٥٧٧ هـ .

كان صلاح الدين يتردد الى مصر بين حين وحين عند ما يرى يده خالية من أعمال الحرب في الشام وما يليها وكان ينتهز فرصة وجوده في تلك البلاد لكي يقيم فيها المدنية التي هي جدرة بها فقد كان يحس أن مصر هي الأقليم الذي يليق للمدنية بحكم ثروته وطبيعة موقعه . فان ذلك الوادي الخصب منعزل عن العالم الخارجي بصحارى تكنفه من الشرق والغرب ، وحدوده من الشمال طبيعية لايسهل على المغير اختراقها لا سيما في تلك الأزمنة ، فلا بد أن تكون منه دولة وأن تكون دولة عظيمة اذا وجدت من يسير دفتها تسيير حكيم خبير . وقد أدرك صلاح الدين بعينه الثاقبة وذكائه المتوقد أن عظمة تلك البلاد في الماضى آية دالة على أنها من اصليح أراضي العالم للمدنية لو عرف أهل الحكم فيها كيف يصلون الى إقامتها من قواعدها الصحيحة . ولكن الحرب عدو للاطمئنان والاستقرار والمدنية لا تثبت إلا في جو من الطمأنينة التامة ، ولهذا رأى أن يجنب ذلك القطر شرور الاضطراب بقدر ماتسمح به الظروف . فعمل ما في وسعه لتحصين بلاد الشمال من إغارة الفرنج بعد أن علم

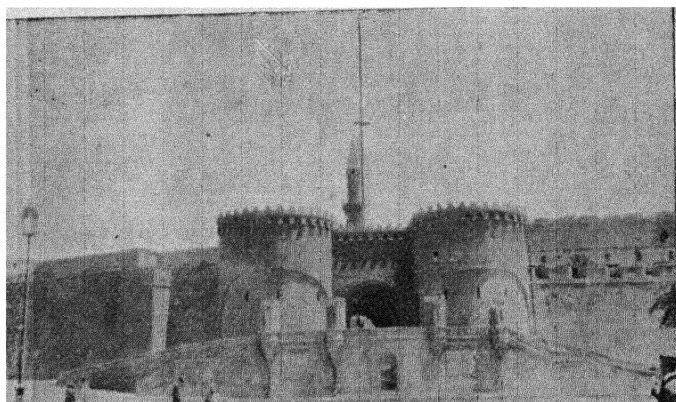


برج في القلعة

من سبقت لهم إغارة عليها أن حربه تكلفهم كثيرا . ثم رأى أن الوقت لائق لتحصين الداخل ببناء القلعة التي سبق له التفكير فيها . وبناء سور حول العاصمة يقيها العدو إذا هو هبط إليها .

فبدأ في بناء القلعة بعد عودته من الشام سنة ١١٧٦ م بعد أن انتهى من الصلح مع الملك الصالح وسيف الدين غازي (الثاني) وبعد أن فرغ من نهج بلد الاسماعيلية كما تقدم ولكنه لم يستطع إتمام كل البناء في حياته لأن الحرب لم تلبث أن دعت مرة أخرى الى ترك ما في يده من الأعمال الوادعة وخوض غمار الدماء بعد سنة ١١٨١ م وسيظل في ميدان القتال بعد ذلك الى وفاته .

وليست القلعة الحالية التي نراها بالقاهرة هي قلعة صلاح الدين بعينها فقد دخل عليها من التغيير شيء كثير في مدة من جاء بعده من أسرته أولا ثم من دولة المماليك بعد ذلك والذي تم بناؤه من القلعة في حياة صلاح الدين هو هيكلها وبئر الحلزون الذي حفر في الصخر الى عمق نحو تسعين مترا وكذلك السور بين القلعة والقاهرة — على حافة الجبل الشرقي في المكان الذي به (باب الوزير) . وأما سائر القلعة فلم يتم إلا في مدة الملك الكامل ابن أخيه بعد نحو ثلاثين سنة من وفاته . وقد أقام صلاح الدين سورا آخر على حافة الصحراء الغربية بالجيزة تحصينا للقاهرة من الغرب ولكن ذلك العمل كان



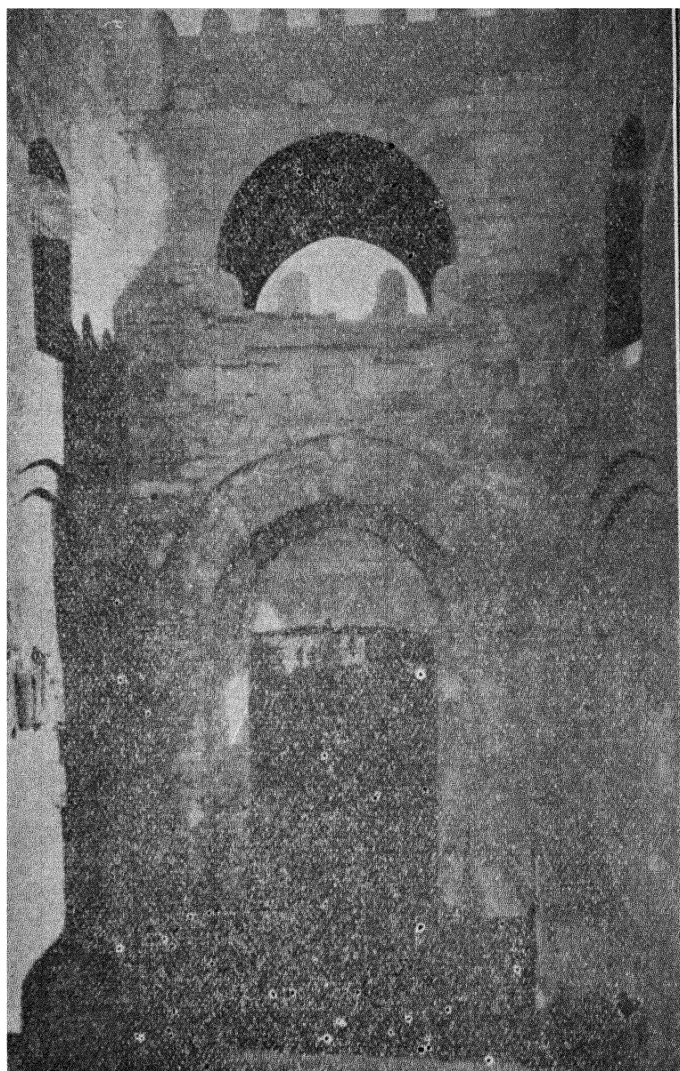
باب في غلصة صلاح الدين

في مدة متأخرة بعد عام سنة ١١٨١ م . وبناء القلعة والسور ليس مثل بناء سور القاهرة القديم ولا مثل السور الذي جددّه بدر الجمالي في دولة الفاطميين فان مباني القاهرة كانت في الغالب على النمط البوزنطى منقولة عن مباني القسطنطينية والدولة الرومانية الشرقية .

وأما مباني قلعة صلاح الدين فكانت على النمط الفرنجى وليس ذلك بغريب فقد نشأ صلاح الدين في الشام وحارب فيها وعرف أساليب دفاع الفرنج في حصونهم فكان ذلك النمط أقرب الى نفسه ولعله كذلك كان أو في بغرضه من النمط البوزنطى وكان يجعل عماله في بناء القلعة جماعات من الأسرى المسيحيين الذين كان يأسرهم في حروبه . لكن نظر صلاح الدين الى الإصلاح لم يكن مقصورا على التحصين بل أنه كان يرى أن أساس عظمة الدولة لا بد أن يكون الشعب فانصرف الى العناية به .

ولقد كان صلاح الدين بطبعه رجل سلام ومدنية ولو أنه كان ملكا في غير تلك العصور لكان كالمأمون وأمثاله ولكنه اضطر بحكم عصره أن يجعل حياته للكفاح والنضال ولذلك نجد أعمال السلم قليلة الى جانب حروبه العظيمة .

فبينما كان يطهر الترع القديمة ويقوى جسور النيل وينظم الضرائب بمساعدة رجال أفاضل مثل القاضي الفاضل والعماد الكاتب



صورة باب في سور القاهرة على الشكل البوزنطى

كان لا ينسى الوجهة الأدبية فأدخل نظاما جديدا في التعليم لم يكن من قبل موجودا بمصر وذلك هو نظام المدارس .

لقد كان من قبل في مصر مدارس كبرى مثل دار الحكمة والأزهر وجامع عمرو ولكن الأقوى والثاني كانا خاصين بتعليم أسرار الشيعة والباطنية فكان التعليم بهما مصبوغا بصبغة الدعوة الفاطمية وأما جامع عمرو فكان في الواقع مدرسة صغيرة لا تفي بغرض التعليم العام ولهذا بدأ صلاح الدين بإدخال نظام المدارس العامة التي يسمح فيها بالعلم لكل من شاء وبدأ في ذلك منذ صار في مصر وزيرا للعاقد الفاطمي . وما زال بعد ذلك يزيد في هذه المدارس حتى صار منها كثير في أنحاء القاهرة مبعثرة من قرافة الامام الشافعي في الجنوب الى سوق السلاح في الشمال ولعل عظمة الأزهر بصفته مدرسة للعلم لم تبدأ إلا منذ ذلك الوقت . ولكن لم يكن في تلك المدارس ما سمي باسم صلاح الدين ولعل ذلك كان ناشئا من خلقه المتواضع فلا نعرف إلا قليلا من أعماله ما أطلق عليه اسم نفسه قصدا .

على أننا لا نستطيع أن نقول أن صلاح الدين أدخل التعليم بالمعنى الحديث وإلا كان ذلك إنكارا منا لروح العصر . فان التعليم الدنيوي أى تعليم الناس كيف يعرفون الحياة ويعملون فيها لم يكن

القصد من المدارس في ذلك الوقت — فإن أكبر ما كان يدرس فيها هو القانون أو الشريعة على المذاهب الأربعة . وأما التعليم الصناعي وغير ذلك من فروع العلم المتعلقة بالحياة المادية فلم يكن ذا شأن في تلك المدارس . بل كان متروكا الى أهل الصناعة أنفسهم كل طائفة تسير على خطتها فيه ويتعلم الصغار بالممارسة طريقة الكبار الذين سبقوهم في الصناعة .

وأما التعليم الحربي فكان في داخل الجيش نفسه وكان كل ما يتعلق بآلاته واستعمالها يتعلمه الأفراد ممن نبغوا في الفن . وكان رجال الجيش كلهم أزر على الأقل جاهلهم من الأتراك والأكراد الذين في خدمة الأمراء فكان التعليم مقصورا على طائفتهم فيدخل الصغير الخدمة ولا يزال بها يتقلب على أنواع الأعمال ويتعلم أثناء ذلك تدريجا ما يؤهله للجندي واستمر هذا الى أن زاد الأمر زيادة كبرى في هذا السبيل عند ما صار الجيش من الممالك بعد عصر صلاح الدين وصدر الدولة الأيوبية .

وإذا قلنا أن التعليم في ذلك العصر كان ناقصا من هذه الجهة فليس معنى ذلك أنه كان ناقصا اذا قسناه بما كان في العالم اذ ذاك . فان الواقع كان غير ذلك . لأن الدولة الاسلامية كانت في ذلك العصر هي الدولة المستنيرة ذات العلم والصناعة والمدنية الموروثة

عن القرون الماضية من مدنيات الدول الاسلامية السابقة .
في حين كان العالم الغربى لا يزال ناشئا يفتح عيذه لأول أشعة
النور الضئيلة .

وكان للإصلاح الذى أدخله صلاح الدين أثر عظيم فى مصر
بنوع خاص وذلك أن مصر بقيت بعد ذلك دولة محصنة قاومت
الهجمات العنيفة التى صدمت العالم الاسلامى بعد ذلك بقليل عند
هجوم التتار ذلك السيل الجارف المخرب واحتفظت مصر لهذا بكنز
من العلم الأدى ودراسة القانون الاسلامى فلم ينحط مستوى الحياة
الأدبية فى الشرق عامة وفى مصر خاصة الى المستوى الذى هبط
اليه فى القرون الوسطى والعصور المظلمة فى أوروبا بل بقى الشرع
عاليا أمام الناس يحفظه كثير من أهل البلاد وتعلو أصواتهم
بالاحتجاج على من يعبث بالناس وينخرق القانون فقلل ذلك من
سوء الحال أيام الاستبداد الذى هوى اليه العالم الاسلامى فى القرون
التي تلت القرن الثالث عشر^(١) . ولعل هذا هو السر فى أن الشعب

(١) مما يجدر بالملاحظة أن الشعب المصرى فى أيام سلاطين المماليك كان بعيدا
عن الاهتمام بأمر الحكم فى البلاد وكان كل الأمر فى أيدي الجند وأمرائهم وهم من
المماليك الذين يجلبون من فىفى التركستان أو جبال القوقاز . وكان الشعب المصرى
آمنا فى صناعاته وزراعته وتجارته لا يعابأ بشئ . ما دام رزقه يأتى اليه وكانت الأرزاق
على وجه العموم فى تلك الدولة تأتى اليه فى رخاء وسعة اللهم إلا فى أوقات المحن =

الاسلامى ولا سيما المصرى لم ينحط الى درك العبودية أو شبه الرق الذى كان فيه شعب أوروبا فى عصر جهالة . . فقد كان من حفظة الشرع من ينشر على الناس أحكام القانون ويعلمهم ما يجب عليهم وما يحق لهم . ومن يرفع منار القانون عاليا أمام الحكام حتى لاتضل أحكامهم ضلالا بعيدا أو تجرفهم فوضى الحروب الى الاستهانة بالحرىات . ولهذا كان الشعب دائما محتفظا بكثير من كرامته وحقوقه وأما ما نسمعه عن مظالم العصور التى أتت بعد القرن الثالث عشر فكان أكثرها مظالم مالية لا شخصية وكانت أكثر

— وانخفاض البيل . وكانت طبقة الحكام تتنازع فيما بينها وكانت فى تنازعها تنزل الى قسوة لا يعرف التاريخ مثلها إلا فى مثل تلك العصور المصطرة على أثر الحروب العظيمة ولكن تلك القسوة لم تنعّد صفوف الجند وكان الشعب فى بعده عن الحكم آمنا وادعا إلا أن حاجة الحكام الى الأموال كانت تؤدى فى كثير من الأحوال الى مظالم مالية فكان الشعب يظهر ألمه وشكواه الى جماعة العلماء الذين أصبحوا على مر الزمن رؤساء الوطنيين وكان نفوذهم يزداد عند الشعب والحكام على حد سواء بازدياد البعد بين الطبقة الحاكمة والطبقة المحكومة . وكان السلاطين اذا سمعوا شكوى الشعب يرددها العلماء لا يسعهم إلا الاجابة وازالة أسباب الشكوى فى أكثر الأحوال . ومما كان يزيد فى قوة تلك المطالب أنها كانت تنجى على لسان العلماء وهم رجال الدين فكانت الشكوى ترتفع كذلك باسم الدين . والحق أن الدين الاسلامى والشرع أو (القانون) شئ واحد فاذا قلنا أن رجال الدين كانوا حماة الشعب كان معنى هذا أن حفظة القانون كانوا حماة الشعب واذا قلنا ان الدين كان محترما فعنى هذا أن القانون كان محترما — فدراسة القانون (الشرعية) كان لها أكبر أثر فى حفظ مصر من الانحطاط الاجتماعى الذى كانت أوروبا تنه منه فى عصرها المظلم فى تلك القرون .

المظالم الشخصية واقعة على الأمراء والجنود وهؤلاء منعزلون تمام الانعزال عن الشعب . فقد كان الأمراء يوقعون بعضهم ببعض ويخترقون القانون في أثناء نضالهم ويرتكبون الفظائع ولكن ذلك لم يتعد كثيرا الى الأهالي الذين كان العلماء على رأسهم حماة للحريات الشخصية^(١) . واستمر هذا الأثر طول مدة استقلال مصر الى أن تغير الحال بعد فتح الأتراك العثمانيين لها .

١٥ — استئناف الحروب بالشام والجزيرة

لم يستطع صلاح الدين أن يبقى على أعمال الإصلاح رغم ميله للسلم فان الظروف دعتة أن يترك العيشة العملية السامية ويقبض على السيف مرة أخرى فانه في مدة الفترة التي سبق الكلام عليها في الفقرة السابقة توفي صاحب الموصل سيف الدين غازي (الثاني) احد المشتركين في صلح سنة ١١٧٦م وتولى بعده أخوه عز الدين إذ لم يكن له إلا ولد صبي صغير ورأى قواد الدولة أن تولية ذلك الصغير ذات خطر خوفا من أن يتهمز صلاح الدين تلك الفرصة فيضم بلاد الجزيرة والموصل الى دولته .

(١) يذكر ابن اياس قصصا عدة عن قيام العلماء الى السلاطين وبث شكوى الناس من الضرائب ونحوها في لغة شديدة وعن نزول الحكام على ما يحبه العلماء في أكثر الأوقات .

ثم مات الملك الصالح أيضا سنة ١١٨١م وأوصى أن تسلم حلب الى ابن عمه عز الدين نفسه صاحب الموصل حتى لا يتمكن صلاح الدين من أخذها ، وهكذا كان بيت عماد الدين زنكى يخشى كل الخشية أن يذهب ملكه الى صلاح الدين . ومن أجل هذه الخشية كان عز الدين ومن معه من الأمراء يجتهدون في إثارة المصاعب أمام منافسهم القوى حتى لا يفرغ لهم . ولكنهم دلوا ذلك على أنهم لم يفهموا ما انطوت عليه نفس ذلك الرجل .

فإنهم لو سكتوا عنه لكان أغلب الظن أنه يدعهم حيث هم فقد كان يقنع بأن يكون آمنا من ورائه بل انه كان يكتفى من فتوحه في البلاد التي يحكمها حاكم مسلم بأن يخضع له ذلك الحاكم فيقره على حكمه ولا ينقص من سلطته شيئا أما وقد حاول هؤلاء أن يخونوه بإثارة المتاعب أمامه وتحريض أعدائه الفرنج عليه فقد رأى أنه لن يستطيع التفرغ لعمله آمنا إلا بعد أن يأمن ناحية الشمال من قبل حلب والجزيرة وعلى ذلك نراه ابتداء بعد موت الملك الصالح بأن يضرب الضربة الفاصلة عند حدود دولته الشمالية .

وقد كانت الظروف مساعدة له — لأن خلافا نشأ بين

عز الدين وبين أخيه عماد الدين زنكى (الثانى) على اقتسام تلك الدولة الشمالية واستقر بينهما الأمر أخيرا على أن تكون حلب

لعماد الدين والموصل والجزيرة لعز الدين وبهذا كان أمام صلاح الدين قوتان متقسمتان بدل دولة موحدة تقف في سبيله .

خرج صلاح الدين من القاهرة في مايو سنة ١١٨٢ م (٥٧٨ هـ) وكان ذلك آخر عهده بها فقد بقي في الشام في حربه وجهاده الى ان مات سنة ١١٩٣ م (٥٨٩ هـ) وقد حدث أثناء وداعه حادث اتفق صدقه فانه كان في مجلس وداع ينتظر اجتماع الجيش ليسير وكان بين الحاضرين معلم لبعض أولاده فأخرج رأسه من الحاضرين كأنه يودع السلطان وقال البيت المشهور :

تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشيقة من عرار

فتطير صلاح الدين منه وتؤكد المجلس وقد صدق ذلك القول فلم يعد صلاح الدين بعد ذلك الى القاهرة حتى مات .

ذهب صلاح الدين الى الشام وبدأ باغارات صغيرة على بلاد الفرنج وحاصر بيروت حصاراً قصيراً بمساعدة الأسطول المصري الذي أصبح عند ذلك قوة يعتد بها في حروبه . غير أنه لم يلبث في هذه المناوشات طويلاً بل قصد الى غرضه الأول وهو حرب الجزيرة فعبه الفرات سنة ١١٨٢ م وساعده جماعة من أمراء عز الدين الموصلية ولهذا تمكن من امتلاك كثير من البلاد بغير حرب أو بحرب يسيرة وكان عز الدين قد أوعز الى الفرنج أن يهاجموا دمشق ليفرجوا

عنه إلا أن صلابة صلاح الدين تغلبت فبقى على حربه وحصر الموصل على أن مناعة المدينة جعلته يرفع حصارها ويذهب إلى بلاد أقل منها مناعة مثل سنجار فملكها وبذلك صار له أغلب بلاد الجزيرة وأصبحت الموصل معزولة عن حلب وصار يستطيع أن يهبط إلى كل منهما على حدة . فالتمس عز الدين مساعدة جيرانه من الأمراء مثل شاه الأرمن (وهو أمير مسلم) ولكن ذلك لم يحده كثيرا فتفرق عنه حلفاؤه بعد قليل .

واستمر صلاح الدين على تملك البلاد الجزرية وشمال الشام مثل آمد وتل خالد وعينتاب وكان انتصاره فيها لما سبق القول سهلا في أغلب الأحوال لميل الأمراء إلى الانضواء تحت لوائه المنصور وترك جانب عز الدين .

وفي أثناء هذه الانتصارات على أمراء الجزيرة وشمال الشام كانت الأساطيل المصرية في البحر الأبيض والبحر الأحمر تحوز الانتصارات الباهرة على الفرنج حلفاء عز الدين ففي سنة ١١٨٢م انتصر حسام الدين لؤلؤ القائد البحري المصري عند أيلة على رأس خليج العقبة ثم عند ساحل الجوزاء في شمال الحجاز على جماعة من الفرنج أرسلهم البرنس أرناط (رجنالد دي شاتيون) صاحب الكرك ليوقعوا بالمسلمين الذاهبين إلى الحج وقد أخذ لؤلؤ جماعة من أسرى

الفرنج وأرسلهم الى "منى" لينحروا بها فكان ذلك جوابا قاسيا على محاولة ارناط الفتك بالجماج المسلمين وكان الأسطول المصرى بالبحر الأبيض يتربص بالفرنج اذا هم قربوا من سواحله وكان كثيرا ما ينقض على سفنهم فيأسر ويغنم حتى اضطر المسيحيون الى عقدهدنة مع صلاح الدين لمدة أربع سنوات تنتهى سنة ١١٨٨م (سنة ٥٨٤ هـ) .

وقد توجت انتصارات صلاح الدين أخيرا بملك حلب سنة ١١٨٣م أخذها من عماد الدين زنكى الثانى صاحبها على أن يعطيه بها بعض بلاد الجزيرة — وبذلك أصبح آمنا على حدوده الشمالية وصار عماد الدين الضعيف حاكما على غرب بلاد الجزيرة. وهى بلاد يسهل عليه فتحها اذا أراد وأصبحت بلاد عماد الدين مانعا من الاضطدام بينه وبين الأمير القوى الشجاع عز الدين صاحب الموصل .

لم يجد صلاح الدين بعد ذلك صعوبة فى أخذ سائر القلاع الشمالية من الشام مثل حارم — وكان يقنع من أصحابها الأمراء المسلمين بالخضوع ويصالحهم على إقرارهم على ما فى أيديهم بشرط أن يكون أقطاعا لهم وأن يكونوا هم وعسكرهم معه اذا دعاهم الى الجهاد .

١٦ - آخر النضال مع الموصل

هل كان صلاح الدين ليقنع بدولته هذه ويرجع الى مصر ليضع أساس ملك ثابت الأركان ؟ أو كان لا بد له من الاستمرار على الحرب الى نهايته المترة ؟ لا حاجة بنا لأن نقف طويلا مترددين عند هذا السؤال فقد كان صلاح الدين وارث دولة نور الدين وكان عليه عبء الاستمرار على جهاده مع الفرنج وما كان يقدر أن يخرج على روح العصر وينتجى وادعا مسالما ولا يزال الخلاف بين الشرق والغرب على أشد ما يكون ولم تخب ثائرتة ، ولو أنه استطاع ذلك وقعد عن الحرب لاضطر الى الدفاع عن دولته بعد قليل لأن الفرنج كانوا اذا شعروا بهدوء في هجوم المسلمين قاموا الى تحقيق حلمهم القديم وهو تكوين دولة مسيحية عظيمة في أحشاء الشرق الأدنى — فكان صلاح الدين مرغما على أن يحارب ، ولهذا رأى بعينه الثاقبة أنه لا بد أن يستعد للنضال الذى جعله قصد حياته ولم يبق أمام صلاح الدين بعد ذلك إلا خطوة واحدة حتى يصبح سيد كل الدولة الإسلامية بالشام والجزيرة فيقدر أن يهوى بتلك القوة العظيمة على الصليبيين فيضربهم الضربة التى كان يستعد لها طول تلك المدة . على أنه لم ينس أن يحبس المسيحيين بين حين وآخر وكان موضع جسده حصن الكرك وفيه ذلك الفارس

الشجاع (ارناط) ، على أنه كان كلما حاصره عرف عجزه عن أخذه مع خوفه من جانب الموصل ، وكان موقنا أنه اذا اشتبك مع المسيحيين كان النضال نضال حياة أو موت فلا يفارق أحد الجانبين عنق الآخر الا بموت واحد منهما ، ولهذا أثر أن يبدأ بعلاج البثرة التي في جانبه قبل أن يلج باب النضال الهائل مع أعدائه المسيحيين . وهكذا ذهب الى ميدان الموصل وقضى فيه ما بين سنة ١١٨٥ م - ١١٨٦ م (٥٨١ هـ - ٥٨٢ هـ) بين حصار لتلك المدينة وانصراف عنها ثم عودة اليها . وكان جماعة من أمراء الجزيرة يصحبونه فلما قرب من الموصل أول مرة سنة ١١٨٥ م أرسل اليه عز الدين يطلب الصلح على يد جماعة من الأمراء وأرسل معهم والدته وابنة عمه نور الدين محمود سيد صلاح الدين وغيرهما من النساء النبيلات . وهناك كان كل الناس يعتقدون أن صلاح الدين لا بد أن يجيب طاب هذه الوفود لما كان معروفا عنه من رقة الخلق ولا سيما مع النساء ولما كان مشهورا عنه من إجلاله لبيت سيده نور الدين . ولكنه هذه المرة لم يعمل بما يوحى اليه قلبه بل رأى الأمر أمر دولة يجب ألا يدخل فيه اعتبار العواطف بجمع أمراء فأشاروا عليه برفض الرجاء وهكذا كان وارتكب صلاح الدين برفض طلب هذه الوفود خطيئتين أحدهما خلقى والآخر

سياسى واذا كان الخطأ الخلقى لا يعنى أهل السياسة فانه على كل حال يعنى من يدرس حياة صلاح الدين الذى لا يكاد المدقق يرى شائبة فى خلقه من قسوة أو نقص فى المروءة والشهامة . على أنه قد يغفر له الخطأ لو اعتبرنا الظروف التى كانت تحيط به ، ورأى بار أمرائه الذين أكدوا له أن أمر الدولة يجب ألا يدخل فى تديره ضعف الرحمة أو الحفاظ . وأما الخطأ السياسى فذلك أنه رفض الصلح وهو غير عارف تمام المعرفة بحال خصمه ، وكثيرا ما يطلب الخصم الصلح وهو قوى حتى يخلص من ويلات الحرب أو لعل الخصم يتظاهر بحب السلام لكى يضع خصمه أمام الناس موضع المعتدى الظالم فيكسب عطف العالم . وعلى كل حال فقد لقي صلاح الدين جزاء تلك الغلظة سريعا ويدلنا على حسن رأيه أنه عرف خطأه بعد قليل فعاد يلوم من أشاروا عليه بسلوك سبيل المخاشنة وتحمل لوم من لومه وقبح فعله مثل القاضى الفاضل مساعده الكبير بمصر . وقد نجح عز الدين بسلوكه ذلك فى استنهاض همم الناس معه فساعدته عامة أهل الموصل وحاربوا مع جنوده مستبسلين . ولهذا لم يقدر صلاح الدين على أخذ المدينة وانصرف عنها مدة قضاها فى بلاد الأرمن الاسلامية التى فسد أمرها بعد موت صاحبها (شاه أرمن) فاستولى على ميفارقين أكبر بلادها وحصونها وأقز

أمرائها عليها بشرط أن يكونوا تبعاً له على حسب عادته كلما فتح بلداً إسلامياً ثم رجع إلى الموصل فاستمر على حصارها وترددت الرسل بينه وبين عز الدين بالصلح فقبل أخيراً على أن يكون عز الدين تابعاً له ويخطب له على منابر بلاده ويكتب اسمه على السكة وينزل له عن كل ما وراء نهر الزاب من بلاد الجزيرة . وهكذا استقر الأمر أخيراً بين صلاح الدين وجاره الشجاع عز الدين الذي يمثل البيت المجيد بيت عماد الدين زنكي . وقد حدثت في أثناء المفاوضات حادثة تستحق أن تذكر وذلك أن صلاح الدين مرض حتى أشرف على الهلاك وكان ابن عمه محمد بن شيركوه قريباً منه وكانت له أقطاع حمص والرحبة فسار إلى حمص وجعل يمهّد السبيل إلى تملك الملك لو مات صلاح الدين ولكن صلاح الدين عوفي وعرف الخبر فلم يمرض غير قليل حتى مات ابن شيركوه على أثر ليلة شرب فيها كثيراً من الخمر — وتقول ألسنة السوء أن صلاح الدين دس إليه من قتله بالسم وهو ينادمه . والحق أن المؤرخين يظهرون في هذه القصة كثيراً من الاحتراس فيقولون دائماً «والعهدة على من يقول ذلك» لأنهم شاعرون أن مثل هذا العمل لا يتفق وما عرف عن صلاح الدين من الزهد في الدنيا والتغاضي عن الإساءات — فقد كان يعرف من عدوه الغدر ثم إذا رأى نفسه قدر عليه عفا عنه

ولم يجرجه بل لقد كان يحسن الى عدوه ويتغاضى عن ماضى اساءته .
فهل كان مثل هذا الرجل ليسم ابن عمه لأنه سمع عنه خبر عزم
على أن يملك البلاد لو مات ولم يفكر في الخروج عليه ولا اضرار
نار ثورة .

وهل كان صلاح الدين يخشى أن يجرد ابن عمه من أقطاعه
لو صح عنده العزم على عقابه ؟ انه كان على رأس الدولة يطيعه
أمراؤه جميعا ويحبهم أهل البلاد والعسكر على السواء فما كان من
العسير عليه أن يعاقب ابن عمه بأية عقوبة لو رآه مستحقا لهذا .
ولئن كان خشى من إثارة ثورة بين أمرائه أو بين أفراد أسرته
لو أوقع بابن عمه أما كان يخشى أن يثير ثورة أكبر بمثل هذا الغدر
وتلك الخيانة ؟ على أن صلاح الدين أثبت اقطاع محمد بن شيركوه
لابنه الصغير ولو كان الأمر قد بلغ حد أن يسقى الأب السم لما
كان يرعى حقه في ابنه وقد قال ذلك الابن علنا مرة في حضرة
صلاح الدين قولا يفيد أنه يتهمه بالاستيلاء على شيء من ميراثه
لأن صلاح الدين كان قد أخذ للدولة أكثر آلاته وخيله وأمواله .
ولو كان هناك شك في أن صلاح الدين شريك في قتل أبيه لما
كان تردّد وله تلك الصراحة أن يتهمه بذلك علنا . ان الظنون تذهب
في الخطأ بعيدا في العادة فما بالك وقد اتفق موت الرجل المتهم

بعد جنايته بفاة . انه من الطبيعي أن يظن الناس في الأمر شيئا من الأسرار ولا سيما وقد كان ذلك العصر عصر أسرار خفية كثيرة .

على أن هذه القصة تلوح لنا محض رواية خيالية فيما يتعلق بابن عمه محمد بن شيركوه ولعل هناك خلطاً بين الحوادث فقد ورد ذكر مثلها عن تقي الدين ابن أنحى صلاح الدين وكان بمصر، وذلك أنه أثناء مرض صلاح الدين جرى من تقي الدين حركات تدل على عزيمته على الاستبداد بالملك اذا مات السلطان . فلما عوفى بلغه الأمر فأرسل اليه صديقه الفقيه عيسى الهكاري وكان مطاعاً في الجند وأمره بانخراج تقي الدين من مصر وأرسل في نفس الوقت الى تقي الدين يدعوه الى الحضور الى الشام فعصى تقي الدين أولاً وعزم على الخروج الى برقة وكان مملوكه (قراقوش) قد ملكها ولكنه عدل أخيراً وذهب الى الشام فأحسن اليه صلاح الدين وأقطعته حماه وبلادا كثيرة غيرها بالشام وأرمينيا ولم يعاقبه على شيء مما بدر منه بل أنه (لم يظهر له شيئا مما كان) .

فاذا كان هذا سلوكه مع من خالف وحاول العصيان أيكون غداراً قاتلاً مع من نوى أن يستقل ولم يتعد عمله النية ؟

١٧ - الجهاد الأعظم

عرض عام

دانت جميع البلاد لصالح الدين من آخر حدود النوبة جنوباً و برقة غرباً الى بلاد الأرمن شمالاً وبلاد الجزيرة والموصل شرقاً . هذا عدا تفضيل الخليفة له واعترافه بساطنانه وذلك ليس بالأمر القليل . وقد كان في ذلك مقنع لنفس ذلك الرجل لو كان يريد ملكاً ونعمة ، ولكنه كان ينظر الى تلك الدولة نظرة الحارس الى ما في حراسته لا يرزأ منها إلا مقدار أجره . ويرى أن الملك انما هو واجب عليه يؤديه بما تقتضى نفسه ويحتم شعوره بالأمانة . ولهذا كان أقل الناس تنعماً بما في يده من متاع ، ولو كان لصالح الدين في غير ذلك العصر الذى وجد فيه لأنشأ مدينة عظيمة في مصر والشام وحواشيها ولتنكب ما يعوق التقدم السلمى بما استطاع فقد كان لا يجب خوض الدماء ، وكان يكره أن يرى من يجب سفك الدماء . ومما يذكر في ذلك أن بعض صغار أولاده طلب منه مرة بعض الأبرى ليقته فلم يرض وزجره فقبل له في ذلك فقال انه يخشى على الولد أن يضرى على سفك الدماء وهو لا يميز بعده بين المقام الذى يستلزم القتل وغيره .

وكانت الحرب عنده شرا لا بد منه وقد اضطر الى أن يقضى أكثر عمره في حروب ودماء وذلك لأن روح العصر كانت تقضى عليه أن يكون محاربا طول عمره . فان الصليبيين أتوا من وراء البحار تدفعهم حماسة شبيهة بحماسة الطفولة الى فتح بيت المقدس والقضاء على الاسلام وقد نجحت صدمتهم الأولى في تكوين دولة مسيحية ولكنها لم تكن دولة بالمعنى الصحيح اذ كان أساسها فوق السطح غير رأس على شعب في البلاد بل عماده جماعات تأتي بين حين وحين من وراء البحار من متحمسى الدين . ولكن الحماسة تنخبو كما تنخبو النار بعد شدتها ولكل عصر مشاغل وآراء والمشاغل والآراء تتغير ولهذا بدأت الموجة تضحل على طول القرن الثاني عشر وفي أثناء ذلك كان المسلمون يرون أنفسهم أهل بلاد أغار عليهم قوم من الأغراب يريدون سلب بيت يقدسونه هم كما يقدسونه أولئك الأغراب واثارت غيرة المسلمين من تذكر هزيمتهم أمام قوم كانوا يرونهم أقل مدنية وأدنى مكانة وهم الذين تعودوا في تاريخهم الماضي أن ينتصروا على سواهم من مسيحيين وغير مسيحيين في أكثر موافقهم وكان عصر صلاح الدين لا يزال على هذه العقيدة التي دفعت زنكي ونور الدين الى الجهاد . فكان محتوما على مثله أن يقود الدولة الاسلامية التي أقامها الى حيث تحرز انتصارا جديدا .

وكان الوقت ملائماً لانتصار صلاح الدين في جهاده أكثر مما كان في مدة من سبقه فان زنكى كان أميراً صغيراً يحاول صدم قوة المسيحيين في عنفوانها وكان نور الدين يحارب المسيحيين وهم لا يزالون محتفظين بكثير من قوتهم وزادوا عليها في النصف الأول من القرن الثاني عشر أن كونوا فرقتي الفرسان الرهبان وهما الداوية (فرقة المعبد أو التمل) والاسبتارية (فرقة الهسبتاليين أو القديس يوحنا) . وكان فرسان هاتين الفرقتين من أكثر المحاربين شجاعة في الحرب وحماسة للدين . ولهذا كانوا شديدي الوطأة في حروب المسلمين .

فلما أتى عصر صلاح الدين في أواخر القرن الثاني عشر كان المسيحيون قد أنهكهم طول الحرب مع المسلمين نحو نصف قرن أو يزيد وكان من يأتي من وراء البحار لامتداد الصليبيين بالشام لا يعوض من يفقد منهم أو على الأقل لم يكن الحديد مثل القديم نجدة ودربة . وزيادة على ذلك قد دب الفساد في داخل الحكم وأصبح ملك بيت المقدس مثل أى ملك آخر اذا تقادم العهد على من بنوه ، نتازعه الدسائس والأغراض وكانت بقية بيت الملك في أيام صلاح الدين الأخيرة محصورة في (بلدوين الرابع) أو (وبلدوين الخامس) ثانياً ، وكان الأول مصاباً بداء الجذام ضعيفاً

لا يستطيع شيئا، وكان الثانى فى يد أم لم يشهد التاريخ كثيرا مثلها غلظة ولا دناءة . وتشاحن الأمراء على الوصاية وكان أجدر هؤلاء الأمراء وأشجعهم (ريمون) صاحب طرابلس — إلا أنه بعد وصايته مدة عزل وتولى بعده رجل أحبته الملكة أم بلدوين الخامس . واسمه عند العرب (كى) وهو (جى دى لوسنيان) ولم يلبث الطفل بلدوين أن مات ويقال ان أمه قتله .

ومن ذلك الوقت بدأ التنافس يتخذ شكلا جديدا — فان (كى) كان من أبجل الناس ظاهرا وأدنتهم حقيقة حتى ان أخاه قال مرة « اذا كان هذا ملكا فما أجدرنى أن أكون إلهًا » وكان من الطبيعى أن كبار الأمراء بالشام يحقدون عليه وأكبرهم (ريمون) الطرابلسى . والحق قد دفع الى شىء كثير حتى الى الخيانة ولهذا يلوح لنا أن ريمون بدأ يرأسل المسلمين وكانت له يد فى انهزام المسيحيين . الى جانب ريمون كان ارناط (رجنالد أو أرنولد دى شاتيون) صاحب الكرك وهو رجل من أشجع فرسان المسيحيين ولكنه كان غرا متهورا غدارا — فاذا كانت خيانة ريمون ساعدت المسلمين بتوطئة سبيل النصر لهم فان غدر ارناط وتهورة قد ساعدا صلاح الدين اذ جعل الحق الى جانبه وقديما كان الحق قوة للمعتدى عليه ولو بعد حين .

١٨ - انتقاد النيران

(موقعة حطين)

إذا كان صلاح الدين قد فرغ من مشاغل دولته ودانت له الامارات الاسلامية جميعا بجمع كل تلك القوة الهائلة بين يديه واستعد ليقتذف بها الصليبيين فيرميهم وراء البحر الذي أتوا منه، فان الصليبيين في الناحية الأخرى كانوا على قلق كبير يريدون أن يقوضوا ذلك البناء المخيف الذي علا الى جانبهم يهدد وجودهم بالشام وكان جماعة من أمراءهم يدفعهم الخطر الداهم الى الاستبسال والاستماتة في النضال . وكان من هؤلاء البرنس ارناط صاحب الكرك .

والى جانب ارناط كان فرسان الداوية والاستبارية يتحرقون شوقا الى لقاء المسلمين لعلمهم يستطيعون بهجماتهم العنيفة صدع دولة صلاح الدين . فكان بذلك المسلمون والمسيحيون على السواء متحفزين للوثوب بحماسة متشابهة وكان ما بينهما جو من التحدى مملوء بالمادة الملتبئة تنتظر أول شرارة ليندلع لهما فيلتهم كل شئ . ولنذكر أن هدنة سنة ١١٨٤ م التي كان أجلها الى سنة ١١٨٨ م كانت لاتزال قائمة في سنة ١١٨٧ م .

لم يكن ارناط حديث عهد بعداوة المسلمين فقد كانت جنوده تهوى على الحاج والتاجر، وأساطيله تسير في البحر الأحمر تلتهم الفريسة الاسلامية ، ولكننا رأينا أنه لم يجد في تصيده إلا ما لا يصاد من ذى شوكة حادة أو ناب قاطع . وكان همدنة سنة ١١٨٤ م طالت به فدفعه تهوره الى خرقها وكان صلاح الدين لا ينتظر إلا ذلك الغدر منه لبدأ بجهاده الذى استعد له .

سارت قافلة قيل أن فيها ابنة السلطان وشيء كثير من المال . وكانت القوافل تجتاز بقلعته غير خائفة واثقة من العهد الذى بينه وبين السلطان . فأهوى ارناط الى تلك القافلة وغنم منها وقتل وأسر . فلما بلغ خبر ذلك الى صلاح الدين ثار ثورة مشروعة ولم يرضه ارناط كما كان ينبغي ، فنذر السلطان أن يقتله بيده لو ظفر به وكانت تلك الحادثة هى الشرارة أشعلت نار الحرب التى لن تنتهى إلا بعد ست سنوات ، كانت أعلام صلاح الدين تحفق بعدها على القدس وجميع بلاد الشام ، إلا بضعة بلاد على الساحل .

أرسل صلاح الدين يجمع الجيوش في ربيع سنة ١١٨٧ م وجعل مركز القيادة العليا دمشق فأنته الجنود من أطراف دولته وكان أول بعوثة اثنين : جعل أحدهما الى الكرك بقيادته هو للانتقام ومنع ارناط من مهاجمة الحاج والوقوف في سبيل العسكر المصرى القادم

اليه ، وأرسل الآخر الى عكا لكي يشغل الداوية والاسبتارية عن مساعدة الكرك . وقد نجح في إحراز غرضه من هذين البعثين نجاحا تاما . ومما يجدر بالذكر أن ريمون لم يتحرك أثناء هذا للمساعدة .

فلما تكامل الجيش الاسلامي في الصيف كان أمام صلاح الدين خطتان : الأولى أن يقف أمام الصليبيين في معركة فاصلة ، والثانية أن يتابع الخطة القديمة من إغارات متكررة ونهب وسبي بغير معركة فاصلة حتى يضعف أعداءه أولا ثم يضرب الضربة القاضية أخيرا ولكنه فضل الخطة الأولى ولعل أكبر ما دفعه الى اختيارها شدة حماسه فقد قال مرة « ان الأمور لا تجري بحكم الانسان ولا نعلم قدر الباقي من أعمارنا ولا ينبغي أن نفرق هذا الجمع إلا بعد الجهد بالجهاد » .

وهكذا سار الى طبرية في يوم الجمعة السابع عشر من ربيع الآخر سنة ٥٨٣ هـ الموافق ٤ يوليه سنة ١١٨٧ م وكان يتخير لغزواته أيام الجمعة «لثقع حروبه في وقت تكثرفيه الدعوات والصلوات» . ثم خلف طبرية وراء ظهره وسار الى غربها عند ما علم أن الجموع الصليبية جاءت ووقفت له عند جبل طبرية من جهة الغرب . ولكن الصليبيين لم يبرزوا له وتحصنوا في مواقعهم ، فأراد أن يحترضهم على لقائه فجعل يهبط الى طبرية فيخرب فيها ويغنم ويحرق . وكان

قصده من مهاجمة المدينة أن ينفر الجيش الصليبي لمساعدتها فيخرج من أماكنه فيلقاه صلاح الدين في ميدان مفتوح وقد نجح في ذلك نجاحا تاما فان الصليبيين تحركوا لنجدة طبرية فعاد صلاح الدين مسرعا عنها وجعل جيشه على الماء وأقنى ما أمامه من ماء الصهاريج وكان الوقت قيظ الصيف فلما أقبل المسيحيون لم يقدرُوا على بلوغ الماء الذي وراء المسلمين ولم يجدوا في الصهاريج التي دونهم ماء فكانوا يحاربون على شدة الجهد من العطش والحرق، ولم يستطيعوا الرجوع الى حيث كانوا خوفا من جيش المسلمين . فكان هذا انتصارا لصلاح الدين قبل أن يضرب ضربة واحدة ، وعلت نفس جنود المسلمين ووثقوا بالنصر قبل اللقاء، فباتوا الليلة في تكبير وتهليل بينما كان قائدهم المدرب الذكي الحذر يراقب نظام جيشه ويوقف كل جماعة في مكانها استعدادا للمصاف في الغد .

وحاول المسيحيون في اليوم التالي بلوغ الماء كلفهم ذلك ما كلفهم ، فمنعهم صلاح الدين من ذلك إذ أدرك قصدهم . وجعل يدور بهم حتى حصرهم حصارا تاما ، ولم يتمكن أحد من الخروج من تلك الدائرة إلا (القمص ريمون) في جماعة قليلة وكان خروجهم من دائرة الحصار مكيدة دبرها ابن أخي صلاح الدين ، وذلك أنه رأى أن قتال (ريمون) وجنوده قتال المستميت فأنسح لهم حتى

أخرجهم من الدائرة فخرجوا وهم يحسبون ذلك نصرا ثم ما لبثت دائرة الحصار بعد ذلك أن التأمت فلم يجد ريمون أمامه غير ترك الميدان والذهاب عن الحرب جملة وضعفت صفوف الصليبيين بذلك النقص في عدد المحاربين .

وبدأت منذ ذلك الحين الهزيمة — غير أن المحصورين احتلوا تلا عند حطين وتحصنوا به مع ملكهم (كي) وأبلوا بلاء عظيما في الدفاع عن أنفسهم . وكان المسلمون يكونون عليهم بين حين وآخر فتعود الجنود منحدره عن التل وهى تحمل من الأسرى والأسلاب شيئا كثيرا وكان من بين ماغنمود صليب الصلبوت ، وكان السلطان يبعث ما فى نفسه من حماسة وثبات الى قلوب المحاربين فكانوا تحت عينيه يأتون بالعجائب من أعمال الشجاعة والاقدام ومثل ذلك أن واحدا من صغار مماليكه أخذته الحماسة عند رؤية سيده وقائده وهو صبي لم يبلغ حد الرجولة فحمل حملة منكزة على الفرنج وهو وحده فأوقع فيهم حتى تكاثروا عليه وقتلوه فلما رآه المسلمون يفعل ذلك أخذتهم الحفيظة لقتله وثاروا ثورة فصدمو جيش الفرنج صدمة زعزعته . وبعد استمرار الهجمات العنيفة حيناهوت خيمة الملك بعد كرات ثلاثة واستأسر من بقى من الفرسان ، وكان النصر تاما لصالح الدين وجنده وسجد شكرا لله وبكى من السرور .

وكان بين الأسرى الكثيرين في هذه الموقعة الملك (كى) والبرنس (ارناط) .

« وكان من يرى الأسرى لكثرتهم لا يظن هناك قتلى فاذا رأى القتلى حسب أنه لم يكن هناك أسرى » .

وقد أكرم صلاح الدين الملك وقدم اليه ماء مثلجا بعده . اوجد من جهد العطش والدفاع فشرب الملك وأعطى فضلة للبرنس ارناط فقال صلاح الدين عند ذلك « ان هذا لم يشرب الماء باذننى » يريد أنه لم يصبر آمنا من عقابه . وكان إكرامه للملك لا يعادله شىء . إلا تقريره «أمير الذى أثار تلك النيران وهو (ارناط) الغادر فقال له «هأنا أنتصر لمحمد» وكان ذلك ردًا على سب (ارناط) لمحمد ودينه فيما سبق . ثم عرض عليه الاسلام فكان ذلك سخرا بليغا ، ولكن الرجل أبى فسل صلاح الدين النمجة وضربه بها فخل كتفه وتم عليه من حضر وبذلك أوفى بنذره الذى سبق أن نذره اذا هو ظفر بعدوه أن يقتله بيده عقابا لما قدم من نقض العهد . وقد اشتد خوف الملك عند ذلك وعظم اضطرابه فأمنه صلاح الدين وسكن جأشه قائلا « لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك وأما هذا فانه تجاوز حده بجفري ما جرى » يشير بذلك الى ارناط . وأما ريمون صاحب طرابلس فقد عاد بعد انهزامه من الموقعة الى صور ثم الى طرابلس حيث مات بعد أيام قلائل .

١٩ - توالى الفتوح بعد انتصار حطين

(فتح القدس)

بعد موقعة حطين التي دامت يومين لم يبق صلاح الدين في مكانه بل هبط الى طبرية في اليوم الثالث وهناك سلمت له القلعة وفي أثناء ذلك كان يبعث بمن يريد الابقاء عليهم من الأسرى الى دمشق ويفتك بمن يريد الفتك بهم وكانت يده شديدة على طوائف الفرسان الرهبان «الداوية والاسبتارية» وذلك لما كانوا يبذلون من نفوسهم في سبيل نصر المسيح بشدة تدعمها حماسة عظيمة وإيمان قوى في عقيدتهم . ولم يلبث صلاح الدين طويلا عند طبرية بل سار الى الغرب نحو عكا فلم يبق أمامها إلا قليلا حتى سلمت وهكذا كان انتصار حطين يسبق صلاح الدين الى المدن فتسلم واحدة فواحدة وهي قوية على المقاومة . ومما يسترعى النظر أن صلاح الدين أعطى كل ما للدواية في عكا لرجل من أصحابه كان على طريقة الفرسان المحاربين اذ كان فقيها محاربا وذلك هو الفقيه عيسى الهكاري صديقه القديم . وكانت غنائم عكا عظيمة أفادت جنود صلاح الدين ولو أن السلطان نفسه لم يرزأ منها شيئا، دأبه في ما كان يغنمه في انتصاراته دائما .

وبعد أخذ عكا اندفع تيار النصر بازاء الساحل فأخذ المسلمون كثيرا من مدنها من يافا الى ما بعد بيروت واجتمعت فلول الجيوش الصليبية وجند الحصون الساحلية جميعها الى صور وهناك تحصنوا ووقفوا على أقدامهم مرة ثانية بعد أن جرفهم سيل الهزيمة، وأتى اليهم امداد من وراء البحر بقيادة من يسميه العرب (المركيش) وهو (كرناد دى متفرات) فقوى ذلك عزيمتهم على الدفاع .

وكان صلاح الدين قد عقد النية على أخذ عاصمة الصليبيين (بيت المقدس) فبعد أن رأى ألوية النصر تخفق له على السواحل ورأى الثغور تفتح لجيوشه بلا مقاومة غير مدينة صور التي بدأت تتحصن وتجهز، سار الى قلب فلسطين وأخذ كل ما كان بين بيت المقدس والساحل من حصون الداوية وأوقف على البحر رجلا من كبار قواده على رأس أسطول لكي يمنع اتيان الفرنج الى الساحل قبالة القدس وذلك القائد البحرى هو حسام الدين لؤلؤ المعروف بالشجاعة ويمن النقيبة . فلما أمن هذه الناحية من البحر ألقى الحصار على العاصمة وعرض على أهلها الصلح على أن يسلموا اليه المدينة نظير تعويضهم أرضا يزرعونها، ولكنهم أبوا ذلك فاستعد لأخذ المدينة عنوة، وجعل يلتمس فى أسوارها نقطة ضعف يهاجمها حتى وجدها بعد فحص دقيق قضى فيه خمسة أيام . وكانت نقطة الضعف

التي اختارها جهة الشمال عند المكان المعروف بباب كنيسة صهيون . وكانت الجموع في بيت المقدس كبيرة والحماسة للدفاع نائرة ، فأثر صلاح الدين الاستعداد بما معه من قوة لأخذ المدينة سريعا قبل أن يفيق عدوه من الضربات التي توالى عليه منذ وقعة حطين ، وقبل أن يأتى امداد متوقع من وراء البحر . فنصب المتجنقات ونظم الرماة فوصلت جنوده الى الأسوار وتقبوا فيها ثغرات ، وكانوا يظهرون في هجومهم من البسالة ما لا يعادله شئ غير بسالة المحصورين أنفسهم اذ كانوا يخرجون كل يوم على خيلهم يقاتلون مستبسلين . وكان الأمراء في جيشي المسلمين والفرنج سواء في الاقدام يحاربون في أول الصفوف ويبعثون في الناس الحماسة بمثلهم الحسن . وكان مقتل أحد الأمراء يدعو دائما الى ثورة في نفوس الجند يتردد لها صدى قوى في اشتداد لهيب الحرب . غير أن ذلك التصادم لم يدم أكثر من أسبوع واحد ورأى المحصورون أن لا أمل لهم في النجاة ، فأرسلوا الى صلاح الدين يفاوضونه في شروط التسليم ، فتمنع أولا وقال انه لن يرضى بغير أخذ المدينة عنوة ليفعل بالفرنج نظير ما فعلوه بالمسلمين يوم أن استولوا على القدس منذ نحو قرن ، ولكنه عاد فرضى بالصلح بعد أخذ ورد طويلين ، واتفق على شروط التسليم وأكبرها أن يدفع المسيحيون ضريبة عشرة دنانير عن الرجل وخمسة

عن المرأة واثنين عن الطفل ، فمن أدى ذلك في مدة أربعين يوما خرج ونجا ومن لم يؤدّه صار أسيرا مملوكا . على أنه سمح لليونان وأهل الشام من المسيحيين ان يبقوا حيث هم بين رعاياه ، وكذلك أباح للفرنجة أن يقيموا في فلسطين اذا شاءوا ، وبدأ تسليم المدينة وخروج من يريد منها في أكتوبر سنة ١١٨٧ م . على أن صلاح الدين لم يصب مالا كثيرا من وراء فداء أسرى بيت المقدس فقد ذهب أكثره لأمرءاء الجند الذين وقفوا على الأبواب يراقبون دفع الضريبة ممن يخرج . وقد أطلق صلاح الدين عددا كبيرا من أهل المدينة بغير فداء ومن على نحو ثمانية عشر ألف رجل نظير ثلاثين ألف دينار وزنها عنهم أمير من أمراء المسيحيين ، وبقى بعد ذلك عدد عظيم لا يستطيع أن يعطى شيئا وكانوا نحو ستة عشر ألفا ، فتسامح صلاح الدين تسامحا كبيرا في أمرهم وكان كثير العفو عن نساء الفرنجة وشيوخهم وأطفالهم خاصة ، فأطلق للملكة بيت المقدس مالها وحشمها لم ينل من ذلك شيئا ، وكذلك فعل بغيرها من كبريات الفرنجة ومن بينهن امرأة (ارناط) نفسه ، وأكرم رجال الدين فخرج كبيرهم مع أمواله وتحف الكنائس وكنوز ذات قيمة عظيمة فلم يرض أن يتعرض له بل أخذ منه العشرة الدنانير المفروضة وسير مع الجميع من يحميمهم الى مدينة صور .

وقد بلغ عدد من دفع عنهم صلاح الدين الفداء نحو عشرة آلاف نفس عدا من أطلقهم أخوه سيف الدين الكريم، ورأى جماعة من المسيحيين وهم خارجون يحملون على أكتافهم من يعجز عن السير لسنه أضعفه، ففرق فيهم مقدارا عظيما من المال وحمل بعضهم على دواب من عنده . وقد أظهر صلاح الدين من التكرم ورقة القلب في هذا الفتح ما يجعلنا نرى حقيقة نفسه واضحة فانه أبى أن يغدر بأحد من فرنج بيت المقدس ولو عظم الداعي الى الغدر وكان لا يعميه تعصب للإسلام عن الرحمة بن كانوا في صفوف أعدائه، بل كان يرحم المتألم وتأخذه الشفقة بالضعيف من امرأة أو طفل تجمع به روابط الإنسانية .

ولهذا يظهر لنا في ذلك الموقف بطلا ينصر جانبا مظلوما على من اعتدى عليه ولم يكن باقائد الأعمى المندفع الى القتل والعداوة بغريزة القسوة والحقد، فكان في ذلك تقيضا واضحا لما كان عليه الصليبيون عند فتح بيت المقدس سنة ١٠٩٧ م .

وبعد أن انتهى خروج من أراد الخروج من المدينة دخل بجيشه اليها منصورا وكان ذلك يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب سنة ٥٨٢ هـ . وجعل يصلح ما أفسده الحرب والحصار وبدأ فيها الإصلاح بأنواعه فأعاد الأبنية الى أصلها بعد أن كان الصليبيون

حَوْرُوا فِيهَا بِحَسَبِ أَذْوَاقِهِمْ وَحَاجَاتِ تَعْبُدِهِمْ وَأَقْبَلَ عَلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى فَأَرْجَعَهُ إِلَى حَالِهِ الْأَوَّلَى وَجَعَلَ فِيهِ مَنْبِرًا كَانَ قَدْ أَعَدَّهُ نَوْرُ الدِّينِ مُحَمَّدٌ بِعِنَايَةِ كَبْرَى لِيَنْصَبَ بِالْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ إِذَا فَتَحَهُ « فَكَانَ بَيْنَ عَمَلِ الْمَنْبَرِ وَحَمْلِهِ مَا يَزِيدُ عَلَى عَشْرِينَ سَنَةً » ثُمَّ جَعَلَ يَحْسِنُ الْمَسْجِدَ وَيَنْمِقُ فِيهِ بِأَنْوَاعِ النُّقُوشِ وَالْفُرُشِ بِالرَّخَامِ الثَّمِينِ وَالتَّمْوِيهِ بِالذَّهَبِ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى الْإِصْلَاحِ الْاجْتِمَاعِيِّ جَاعِلًا الْمَدَارِسَ مَحَلَّ الْأَسَاسِ مِنَ الْبِنَاءِ سِيرًا عَلَى سَنَتِهِ الَّتِي اتَّبَعَهَا فِي مِصْرَ . وَبَعْدَ أَنْ قَضَى زَمَنًا يَسِيرًا فِي الْأَعْمَالِ السَّلَامِيَّةِ وَالْإِصْلَاحِ ذَهَبَ إِلَى إِيْتِمَامِ عَمَلِهِ فِي الْحَرْبِ فَقَصَّدَ إِلَى صُورَ .

٢٠ - حصار صور ورفعته وفتوح

سنة ١١٨٨ م - ٥٨٤ هـ

كَانَتْ صُورُ حَصِينَةً بِمَوْضِعِهَا وَزَادَهَا مَنَعَةٌ مَا قَامَ بِهِ الْمَرْكِيشُ (كَنْرَاد) مِنْ حَفْرِ الْخَنْدَقِ حَوْلَهَا حَتَّى أَصْبَحَتْ كَالْجَزِيرَةِ ، وَكَانَتْ مِثْلَ الْكَفِّ أَوْ الرَّأْسِ بَارِزَةً فِي الْبَحْرِ وَيَصِلُهَا بِالسَّاحِلِ طَرِيقٌ كَالْعُنُقِ أَوْ كَالسَّاعِدِ وَكَانَتْ الْحَرْبُ عِنْدَ ذَلِكَ الْعُنُقِ الْمُتَّصِلِ بِالسَّاحِلِ مِنْ أَشَقِّ الْأُمُورِ عَلَى الْمُسَالِمِينَ إِذْ كَانَتْ الْجُنُودُ تَحَارِبُهُمْ مِنَ الْمَدِينَةِ أَمَامَهُمْ وَالسُّفُنُ تَحَارِبُهُمْ مِنَ الْبَحْرِ مِنْ جَانِبِ الْعُنُقِ .

ف رأى صلاح الدين أنه لا يستطيع أخذ المدينة إلا بمساعدة الأسطول فأرسل الى أسطوله المصرى لذلك الغرض ، ولكن قلة عدد السفن التى أنت مكنت الصليبيين من هزيمة المهاجمين ، وبذلك رأى صلاح الدين أن يترك حصارها ، وكان هذا الخذلان مشددا لعزائم الفرنج بعد انهزامهم الكبير عقب حطين . وقد قضى الشتاء من عام سنة ١١٨٧ م فى راحة من الحرب فلما بدأ الربيع من عام سنة ١١٨٨ م كان عليه أن يعود الى الحرب وقد تنفس عدوه راحة مدّة طويلة .

وفى أوائل سنة ١١٨٨ م — ٥٨٤ هـ . قام ببعض غزوات انتصر فيها انتصارات صغيرة وكانت نتيجتها زيادة تمكنه من الساحل ودخوله الى الاقليم التابع لأنطاكية ، وكذلك زيادة تمكنه من الاقليم الواقع بين بيت المقدس والبحر ، وكان لا يزال به بقايا حصون الداوية والاسبتارية أبطال الصليبيين . وقد انتهى حرب أول سنة ١١٨٨ م بهدنة مع أمير أنطاكية (بوهمند) وهو أكبر الأمراء الباقين من دولة الصليبيين . وكان شرط الهدنة لمدة ثمانية شهور نظير أن يطلق بوهمند من عنده من الأسرى . وكان غرض (بوهمند) أن تأتى اليه بعد تلك الفترة مساعدة من أوروبا كما كان غرض صلاح الدين التفرغ لليدان الجنوبي ، فذهب توا اليه لمساعدة

الجيوش المحاصرة لقلاعه وفتح أكبر ما بقي من تلك القلاع وهى الكرك والشوبك وصفد وكوكب . وكان صلاح الدين كلما فتح بلدا من تلك البلاد تسليما بغير حرب اذن لأصحابها بالرحيل عنها وكانوا جميعا يختارون مدينة صور . وقد لام كثيرون تلك السياسة وقالوا انها كانت غلطة من صلاح الدين وقصر فى النظر إذ مهد السبيل الى جمع عدد عظيم من المحاربين فى مدينة صور وبذلك خلق لنفسه قلعة حصينة معادية له على الساحل تستطيع مقاومته بمن رحل اليها، ولكنها يجب ألا ننسى أنه عندما أوسع صدره لكل من يسلم وأباح ذهاب من أحب الى مدينة صور، قد شجع أعداءه على التسليم بغير حرب وقلل بذلك من ضحايا القتال .

وكذلك يجب ألا ننسى أنه كسب بسياسته شيئا كبيرا وهو تطهير الداخل من أعدائه وحشدهم جميعا فى جهة واحدة على الساحل، والحصون الداخلة فى البلاد لا شك أشد خطرا لوبقيات على المقاومة من حصون الساحل لأن الأولى تختلل دولته وتهتد كل حركاته . وأما حصون الساحل فيمكن الوقوف دونها ومنع من فيها من ولوج البلاد مع شئ من المراقبة الدقيقة ولا يستطيع قوم البقاء فى الساحل إلا مع استمرار الأمداد وتوالى النجدات من الخارج وهذا أمر لا يمكن بقاءه الى الأبد إذ أن حماسة القوم لا بد تنجو

متى أدركوا أن موقفهم غير طبيعي ولا ينتظر منه نجاح . فكأنه كان واثقا أن دفاع صور لن يدوم بل لا بد من سقوطها متى طال عليها الزمن وانقطع عنها ما يكفيها من الأقوات والأمداد من الخارج ولعل هذا يبرر خطته التي يلوح على ظاهرها أنها كانت غير سديدة .

٢١ -- الحملة الصليبية الثالثة

لقد مر نحو قرن على الهزة العظيمة التي اهترتها أوروبا أيام البابا (أربانوس الثاني) وذهبت أجيال من الناس بعد من سمعوا خطابات الناسك بطرس يستفز إلى تخليص بيت المقدس من المسلمين ونصرة الصليب . وقد أتى ذلك القرن الذي مرّ منذ تلك الأيام بتغير عظيم في أوروبا فكانت الحياة الجديدة تُمشي في شعوبها وكانت فوضى نظام الاقطاع تكاد تُنجلي غبتها عن حكومات جديدة وكانت عقول أهلها تستقبل العلم القديم الذي اندثر ودفن قرونا عدة وهي تحسبه شيئا جديدا فأخذت تُتذوق لذته . ولكن مع كل هذا التغير بقي في أوروبا شيء كبير من الدافع الأول إلى نصرته الدين . ونشأت منه حملة جديدة وهي المعروفة بالحملة الصليبية الثالثة وأنا لنلمح فيها أثر التغير الذي طرأ على أوروبا ولو أن الظواهر كلها تخدع وتفهم الناظر السطحي أن هزة أوروبا

فى أواخر القرن الثانى عشر هى نفسها الهزة التى اهترتها من قبل
فى أواخر القرن الحادى عشر .

ما كانت تنقضى سنة من القرن الثانى عشر منذ سنة ١١٠٠ م
بغير أن ترد الى الشام وفود من الحجاج المتحمسين بعضهم رجل
مسن أو امرأة عجوز أو طفل صغير وبعضهم شاب أو كهل يلهب
شوقا أن يجد الشهادة فى البلاد الطاهرة وهو يقتل المسلمين ، غير أن
تلك الوفود ما كانت فى العادة تأتى للحرب قصدا بل كانت
إذا وجدت حربا اشترك من يقدر من رجالها وشبانها فيها وكانت
الحروب لا تفتر سنة واحدة لا سيما بعد أن نبغ عماد الدين زكى
أتاك الموصل ، وبدأ سيرة جهاد طويل استمر فيه ابنه نور الدين
محمود وتلقى من بعدهما سيف الجهاد صلاح الدين .

غير أن بعض الحوادث كانت تثير فى أوربا حماسة فوق
المعتادة فعند أخذ الشهيد عماد الدين مدينة (الرها) ثارت فى أوربا
ثورة أبجها بعض نوابغ رجال الدين مثل القديس (سان برنار)
وكانت نتيجةها حملة عظيمة يعدها التاريخ (الحملة الثانية) متجاهلا
ما كان بين الحملة الأولى وبينها من وفود الحجاج والامداد العسكرية
التي كانت كما قدمنا تفدين حين وحين الى الشام . وكذلك ما حدث
فى أواخر القرن الثانى عشر ، فقد كانت الجنود تتوالى فى مجيئها الى

الشام لنصرة جنود المسيح بالشام أو للأغارة على مصر بعد أن أصبحت قاعدة دولة صلاح الدين ، ولكن التاريخ لا يسمى هذه الحملات والامداد بل يمر بها لا يعدها .

فلما سقط بيت المقدس في يد صلاح الدين بعد وقعة حطين وما تلا ذلك من الانتصار على الساحل وفي الداخل ، قامت قيامة من عويل واستصراخ في أوروبا وأجج رجال الدين النيران كما كانت العادة دائما إذ كانوا أكثر الناس تمحسا للحرب وتخليص بيت المقدس من يد أعداء المسيح ، وبالغوا في استنهاض الهمم وإثارة النفوس حتى غضب للدين مئات الآلاف وقام على رأسهم أمراء وملوك وكانت على أثر هذا حرب عظيمة يسميها التاريخ الحرب الثالثة . ويحسن بنا أن نمر مرأ سريعا على ذكر الوفود الكثيرة التي بادرت للنجدة آتية من بلاد مختلفة من بلاد البحر الأبيض المتوسط في الجنوب الى بلاد الدانمرك والفلندر في شمال أوروبا .

ولكن لا بد لنا من شيء من الاطالة عند ذكر ملوك ثلاثة جاءوا متأخرين بعد هذه الوفود يلبون دعوة المستصرخين ، وهم الامبراطور (فردريك) المعروف بلقب (برباروسا) امبراطور الدولة الرومانية المقدسة ويسميه العرب ملك الألمان ، والملك ريكارد (قلب الأسد) ملك إنجلترا ويطلق عليه العرب اسم (الانكتير أو الانكار أو الانكلتار)



صورة الانتكاز (ريكارد ملك انجلترا)

(وفليب أوجوست) ملك فرنسا ويطلق عليه العرب اسم (الفرنسيس). أما فردريك فقد كان امبراطورا على دولة عظيمة تشمل ولايات ألمانيا من الشمال وبلاد نهر الرين من الغرب وإيطاليا من الجنوب وكانت في بلاده مشاغل كثيرة أكبرها مسألتان عظيمتان الأولى نضاله مع أمراءه الاقطاعيين والثانية نضاله مع الرئيس الديني وهو البابا . وقد نجح فردريك نجاحا لا بأس به مع أمراء ألمانيا الذين كان نفوذهم قبل توليته زاد زيادة تضاعف الى جانبها سلطان الامبراطور، وبعد نضال دام سنين طويلة أمكنه أن يعلى اسم الحكومة المركزية ودان له أكبر أمراء الدولة . ولكنه لم يلق مثل هذا النجاح في نضاله مع البابا فقد أدى النضال الى حرب كانت سجالا بين الجانبين وانتهى أمره بأن سوى الأمر وتصلح الرئيس الديني مع الرئيس الدنيوى وكان من شروط الصلح أن يتفق الاثنان على من يعاديهما .

ولعل أكبر من كان عدوا في نظر البابا ونظر هذا العصر هو الاسلام حيث كان سواء في الشرق أو في الغرب فكان الامبراطور يحب أن يقوم الى حرب المسلمين لكي يعلى من شأن نفسه ويزيد من هيئته وسلطانه وكان البابا كذلك يحب أن تتصرف قوة الامبراطورية الى حرب دينية يصدر الناس ويردون فيها عن كلمته هو اذ كان لا يدفع ولا ينازع في رئاسة الدين .



صورة الفرنسي (فليب ملك فرنسا)

ألا يلمح الانسان في هذه الحرب الصليبية دافعا غير الدين والحماسة له والاخلاص للجهاد في سبيل المسيح ؟ أنا لا نستطيع أن نتجاهل الفرق العظيم بين الحالة النفسية في عصرى الحملة الأولى والحملة الثالثة . فقد قامت الحملة الأولى تلبية لدعوة الكسيوس امبراطور الدولة الرومانية الشرقية وهو مخالف لغرب أوروبا في الدين ولكن حماسة العصر وفكرة الدين غلبت كل شىء في سبيلها .

وأما الحرب الثالثة فلم تكن بنت حماسة مثل الحماسة الأولى بل دخلتها عناصر دنيوية أخرى .

وهنا نحن نرى للبابا غرضاً من تشجيعها وللامبراطور كذلك غرضاً غير وجه الدين والدفاع .

وأما (الانكثار) ريكارد فقد كان ملك انجلترا ولو أنه لم يقيم في تلك البلاد ويسميه قومه بالملك الغائب وكان من سلالة امتزج فيها دنان الأول دم الزمان أبناء وليم الفاتح الذى غزا انجلترا في القرن الحادى عشر والثانى دم الفرنسيين أمراء انجو .

وكان هناك في ذلك الوقت نضال كبير بين ملوك انجلترا وملوك فرنسا على كثير من ولايات فرنسا كل منهما يدعى فيها حقا ولكن في مدة (فليب أوجست) وريكارد بدأت كفة فرنسا ترجح وجعلت انجلترا تسير في أول طريق نموها الطبيعى وهو تكوين قومية منعزلة

في جزائرها وانما نظامها الدستوري تدريجا على يد أمراءها الذين بدأوا يعدون انجلترا بلادهم بعد أن كانت نظرتهم الى فرنسا أولا انها منشؤهم ووطنهم . وكان ريكارد من أشجع الناس على أنه كان من أغلظهم كبدا ولم يكن بالقديس ولا الذي يعبأ بأمر الدين كثيرا فذهب الى الحرب الصليبية محاربا بيده (بلطته) أورمحه ومعه رماته وفرسانه وهم يلتمسون جميعا في الشام النصر والمجد الذي التمسه أجدادهم في ميادين أخرى . ولكن ميدان ذلك الوقت كان مع المسلمين في الشام .

وأما (الفرنسيس) (فليب أوجست) فقد كان من سلالة الأسرة الفرنسية الكبيرة التي أولها (هيوكايه) وقامت في فرنسا على انقاض دولة أبناء (شارلمان) — وكانت مدة أسرة (هيوكايه) يشغلها نزاع دموى بين الأمراء الاقطاعيين وبين بيت الملك وكان الانتصار في أول الأمر للأمراء حتى لم يكن للأوائل من بيت (كايه) إلا ملك أسمى ، ولكن بدأت الكفة ترجح الى جانب الحكومة المركزية وأخذ الملوك يزدون من نفوذهم وملكهم حتى جاء فليب أوجست فكان من أكبر من عملوا على إضعاف شوكة الأمراء وزيادة نفوذ الملك . وكان انتصاره على أمرائه بفرنسا وعلى منازعيه ملوك انجلترا مما جعله من أكبر ملوك أوروبا الذين

توجه اليهم الدعوات اذا أزمة أزمّت ولهذا قام فليب الى نصرمة الصليبيين بالشام بعد أن هدأ له الأمر في داخل بلاده . غير أنه بما كان ينظر الى الحرب الانظرة ملك عظيم يجب عليه ألا يتخاف عن مهمة تحرك لها غيره من العظماء ولن يلبث أن يعود الى بلاده التي كانت في نظره محل أداء واجبه وليس بلاد الشام .

كل ذلك يظهر لنا أن الذين كانوا زعماء الحرب الصليبية الثالثة لم يهبوا هبة مضطربة صاخبة مثل هبة الحرب الأولى بل ساروا لغرض مدبر وقصد معين . كل يرمى من ناحيته الى هدف ينبغي أن يصيبه .

على أننا لا نقدر أن نقول أن الحماسة كانت غير متأججة في نفوس المحاربين ، فان الحماسة بين عامة الجند كانت عظيمة نائرة للجرح الحديد وهو الاستيلاء على بيت المقدس وسواه من البلاد التي كانت للمسيحيين مدة قرن ثم استولى المسلمون عليها ولكن تلك الحماسة لم تكن بها شدة الحماسة الأولى ولا مرارتها .

ولا يسعنا اذا رأينا ما تخلل تلك الحرب الثالثة من المداعبات بين المسلمين والمسيحيين ومن المزاح أحيانا ، وما كان بين ملوك هؤلاء وأولئك من التقدير والتفاهم أحيانا والاجلال المتبادل —

نقول لا يسعنا اذا رأينا ذلك الا أن نعد تلك الحرب ميدانا للسابقة بين الشرق والغرب كل يريد أن يظهر صلاحه وقوته فلم تكن كلمة اليوم بها مثل كلمة اليوم في الحرب الأولى :

ليس بينى وبين قيس عتاب غير طعن الكلى وضرب الرقاب

٢٢ - أمام عكا

اجتمع من اجتمع من الفرنج في صور وأوقف صلاح الدين تجاههم جماعة من رجاله يراقبونهم . وكان يعرف أنه قد ارتكب شرا بسماحه للفرنج أن يذهبوا الى صور من كل جانب .

ولكنه في الوقت ذاته كان مضطرا الى ذلك بحكم السياسة، فكان ذلك في نظره أهون الشرين — وما كان مخيرا الا بين هذا وبين أن يستبسل له كل حصن ويضيع عليه الوقت في حصارات لا عد لها . وعلى أى حال لقد أصبحت صور مجتمع بقية فرسان الصليبيين ، وزادهم قوة من انضم اليهم من وراء البحر . ولما شعروا بقوة عددهم وان صلاح الدين لا يستطيع حصار مدينتهم جعلوا يخرجون بين حين وحين الى ما جاورهم من البلاد وكان صلاح الدين يدبر لهم الكائن والبعوث تمنعهم من أن يفسدوا شيئا من بلاده ، وأخيرا استقر رأيهم على أن يذهبوا الى عكا لاسترجاعها فيكون بذلك لهم مئتان عظيمتان على الساحل الأوسط .

كان صلاح الدين عند حصن الشقيف في الجبل ينتظر أن يأخذه فبلغه خبر سير الفرنج من صور نحو عكا . فظان ذلك خديعة منهم يريدون صرفه عن الحصن الذي هو دونه ، فترى حتى عرف أنهم جادون في السير نحو عكا . فأسرع بمكاتبة الأمراء ليأتوا إليه ، فاجتمع إليه جيش عظيم وجمع مجلسا حربيا ليختار طريق السير ، أيسار الفرنج على الساحل ويقال لهم قبل بلوغ عكا أم يلقاهم هناك على المدينة بعد أن يسلك طريقا في الداخل مارا بطبرية ، فاختار أمراؤه الخطة الأخيرة فهي أهون ، وكان هو غير راض عنها لأن الفرنج متى تركوا آمنين حتى يصلوا الى عكا أمكنهم اختيار المكان اللائق والتحصن حولها فيصعب بعد ذلك حربهم . ولكنه على كل حال اتبع ما أقره المجلس على حسب عادته — فقد كان رأى أمرائه أكبر من أن يهمله ، وكانت نتيجة أرغامهم على سلوك خطة معينة أخطر من أن يجربها ذلك السلطان العاقل ، فالحق أن سلطته كانت قائمة على قوة شخصه ونفوذه في أمرائه أكثر مما كانت قائمة على سلطان دولة مركزية قوية .

وكان أول هم صلاح الدين عند بلوغه عكا أن يرسل إليها الامداد بعثا وراء بعث قبل أن يستفحل أمر حصار الفرنج لها .

وأصبحت المدينة بعد زمن قصير محصورة بالفرنج تحت ملكهم (كى) والأمير الكبير المراكيش (كنزاد) ونزل حول الفرنج من الخارج جيش صلاح الدين وكان البحر مفتوحا يمد الفرنج من جهة بما يأتى مع أساطيلهم ، ويمد المدينة خفية لأن أسطول الفرنج فى البحر كان عند ذلك أقوى من أسطول المسلمين .

وهكذا اجتمعت كل قوة الفرنج وكل قوة الدولة الإسلامية عند عكا فى أغسطس سنة ١١٨٩م شعبان ٥٨٥ هـ فكان ماحولها ميدانا واسعا فى البر والبحر ظهرت فيه من الجانبين آيات باهرة من الشجاعة والتضحية ، وأتى الأفراد فى كلا الجيشين أجل أعمال البطولة الخارقة للعادة . حقا لقد كان سباقا عظيما بين الشرق والغرب وقد ظهر فيه كلاهما بمظهره الأسمى كل بحسب طبعه ، وكان كلا الجانبين المتسابقين من جانبه جليلا .

واستمر النضال هناك عامين حدث فى خلالها معارك كثيرة بعضها كبير وبعضها صغير الى أن جاء فليب ثم ريكارد فى ربيع سنة ١١٩١م — ٥٨٧ هـ . فأصبحت قوة الفرنج أكبر من أن يغلبها صلاح الدين فأثر ترك المدينة اليهم فسلمت بعد قليل فى يولييه سنة ١١٩١م — ١٧ جمادى الآخرة ٥٨٧ هـ . وقد قلب ذلك النضال بين المتحاربين وحدث فيه فترات ، ولهذا يحسن تقسيمه الى

أدوار ثلاثة : الأول من أول الحصار الى هجوم شتاء سنة ١١٨٩م —
 ٥٨٥ هـ . والثاني من ربيع سنة ١١٩٠م — ٥٨٦ هـ الى أول شتاء
 سنة ١١٩٠م . والثالث من ربيع سنة ١١٩١م — ٥٨٧ هـ الى
 سقوط المدينة .

٢٣ — الدور الأول للحصار

حدث ما توقعه صلاح الدين — فعند ما ذهب الى عكا كان
 الفرنج قد اختاروا مكانهم وحصروا المدينة حصاراتها وكان عددهم
 ألفى فارس وثلاثين ألف راجل فكان هم صلاح الأول أن يجعل
 في الحصار ثغرة يستطيع أن يصل بها الى المدينة بالجنود والأقوات
 حتى تقدر على المقاومة . وانفتح الطريق أخيرا الى المدينة بعد أن
 لقي صلاح الدين مشقة عظيمة من مقاومة الفرنج له . وكان كثير
 الاهتمام أثناء هذا حتى لقد بقى ثلاثة أيام بغير أكل إلا شيئا يسيرا .
 ولكن الفرنج جعلوا يعاودون الكرات حتى يتموا الحصار مرة أخرى
 فكانت المعارك تحدث كل يوم حول الأسوار ، وهنا نلاحظ
 أمرا يمكن أن ندرك منه روح الحرب بين الطائفتين فقد جعل
 الحرب بين جنود المسلمين والفرنج شبه تعارف ومودة — وما أغرب
 ذلك — فكانوا بين الهجمات العنيفة يضعون السلاح ويتحدث
 الجماعة من المسيحيين الى الأخرى من المسلمين . وقد يغنى البعض

ويرقص البعض . بل لقد كانوا يمزحون كما فعلوا مرة اذ اتوا بصبيين : أحدهما مسلم ، والآخر مسيحي . ووقف الجانيان ينظران الى نضالهما حتى تغلب المسلم وقبض على أسيره المسيحي فافتداه بعض الفرنج المازحين بدينارين . وهكذا كان الناس من الطائفتين يقطعون بعض وقتهم في فترات الحرب — أحقا كان في هذه الحرب مرارة الجهاد وتجهم الحقد المتأصل في النفوس وعبوس العداء الذي كانت تتماز به الحرب الصليبية الأولى ؟

لسنا مبالغين اذا قلنا أن عصر الحرب الصليبية الحقيقية كان قد انقضى منذ أوائل القرن الثاني عشر ولم يبق إلا نضال دنيوى يدافع فيه المسلمون عن بلادهم ويحاول الفرنج أن يبقوها في يدهم أباء وأنفة أن يكونوا مخذولين وحذرا من معزة الهزيمة . وقد بلغ النضال أشده في هذا الدور من الحصار بعد نحو شهر ونصف من البدء فيه فدارت رحى أشد معركة شهدتها أسوار عكا . وتقلب فيها الحظ بين الجانيين ولكن ثبات السلطان وإخلاص أهل بيته وشجاعتهم وانقياد أمرائه لأوامره — كل ذلك جعل النصر للمسلمين بعد أن قتل من الجانيين عدد عظيم — ولكن قتلى الفرنج كانوا آلافا قليل سبعة .

وبعد هذه الموقعة جمع السلطان مجلسا حربيا كعادته وكان يرى أن هذه الصدمة الأولى لابد تؤثر في نفوس أعدائه فاذا تابع

المهجوم كان رفع الحصار عن عكا محققا، ولكن أمراءه رأوا تفضيل الراحة بعد وقوفهم عند عكا نحو خمسين يوما فنزل على رأيهم وكان هذا من غلطاته لأن الراحة أفادت الصليبيين أضعاف ما أفادت المسلمين . ولم يستأنف بعد تلك الراحة قتال جدى فى هذا العام لدخول الشتاء فاكتمى صلاح الدين بادخال المؤن والرجال الى عكا، وسرح جنوده لمدة الشتاء الذى تكثرفيه الأمطار وتتعذر الحركات ، وتراجع بباقي الجيش الى الخروبة تخلصا من عفونة الميدان الذى حول عكا لما كان به من جثث القتلى . ولم يكن خالى البال فى أثناء راحته لأنه كان يتوقع مجئ الإمداد الى عدوه من أوروبا وكان كل يوم يتطاول به الحرب يزيد من توقع العجز عن رفع الحصار .

وكان أكثر ما يرد اليه من أخبار الفرنج يدن على مسير ملك الألمان (فردريك برباروسا) فى جيش عظيم لنصرة الصليبيين .

٢٤ - الدور الثانى للحصار

بعد انقضاء الشتاء أرسل صلاح الدين الى أطراف دولته الواسعة يدعو أمراءه لاستئناف القتال فى الربيع من سنة ١١٩٠م - ٥٨٦هـ فأنت اليه الكتائب يلى بعضها بعضا وجاءته مساعدات من الخليفة ببغداد . وقد استعد هذه المرة بالنفاطين والزرايين الذين يرمون النيران

والنفط على آلات الحصار . وقد أبلى في ذلك الشأن بلاء حسنا شاب من صناع دمشق فانه أدخل من التحسين على صناعة النار ما جعلها تحرق آلات الحصار المنيعه التي كان الفرنج يطلونها بطلاء يمنع تعلق النار بها . وكان أشد الآلات على المدينة الدبابات وهي أبراج عالية ذات طبقات يركبها الجنود وتسير على عجل وفي مقدمتها حديد قوى فتصطدم بالأسوار فتصدعها ثم يعمل الجنود المجتمعون بها في الأسوار فيهدمونها .

وقد تمكن ذلك الشاب المجتهد من إحراقها باختراع سائل يرميه أولا في قدور على هذه الدبابات المدرعة ثم يقذف بعد ذلك النار فيلتب ذلك السائل ولا يقاوم ناره شيء .

وقد تأخر وصول الأسطول المصرى الى ما بعد أن استؤنف القتال ولهذا وجد صعوبة في الوصول الى الميناء ولم يصل اليها إلا بعد أن قام صلاح الدين بهجوم عام من الخارج في البر ليشغل جنود الفرنج فيخفف بذلك الضغط عن البحر، فدارت معركة برية بحرية في وقت واحد وانتهت بانتصار عظيم ودخل الأسطول المصرى الى عكا محملا بالمؤن والمخاريب . وكان صلاح الدين يجد في الحرب خاشيا من وصول ملك الألمان بالمساعدة المنتظرة ، ولكن لحسن حظه كانت حملة ملك الألمان غير موفقة .

فقد سار فردريك بارباروسا عن طريق البر من ألمانيا مخترقا بلاد المجر الى البلقان والقسطنطينية . وكانت تلك الخطة في الواقع خطة غير ممكنة لأن سير جيش عظيم في البر لا بد يؤدي الى احتكاك كثير مع الأهالي ولا سيما في الدول التي يوجد فرق بين مذهبها الديني وبين مذهب الغربيين وهذه عامة أمم البلقان .

فما زال الجيش يجد صعوبة بعد صعوبة حتى وصل أخيرا الى القسطنطينية وكان ملك القسطنطينية هذه المرة غير محتاج الى الصليبيين بل لقد كان يخشى زيادة اعدادهم عنده ويكره أن يجوسوا خلال بلاده — ولم يكن سلوك الجيش الألماني سلوكا يطمئنه على سلامة بلاده فقد أوقعوا شيئا من النهب فيها وطلبوا منه كثيرا من الأموال كأنهم في بلاد معادية . وكان عند (فردريك) نفسه سوء ظن بالامبراطور الشرق وهذا ما جعله يطلب منه الرهائن على حسن نيته ، ولعل هذا يفسر لنا الخطاب الذي أنفذه امبراطور القسطنطينية (ايساكوس) الى صلاح الدين يذكر له كرهه للألمان وولاءه له . نعم لقد تغيرت الأحوال منذ تلك الأيام التي كانت القسطنطينية تطلب مساعدة غرب أوروبا على المسلمين أيام أنمار (الكسيوس) نيران الحرب الصليبية في أواخر القرن الحادي عشر .

وبعد صعب جمعة عبر (فردريك) المضائق الى آسيا الصغرى وهناك لقي أشد الصعاب من التعب والجوع من جهة ومن المرض من جهة أخرى ومقاتلة فرسان مملكة الروم الإسلامية وملكها (قلج ارسلان) . وقد جاءت الضربة القاضية لذلك الجيش أخيرا إذ مات عميده الإمبراطور (فردريك) في نهر في شرق آسيا الصغرى قال جماعة مات غرقا ويقول متحمسو المسلمين أنه غرق في ماء لا يتجاوز علوه نصف علو الرجل لأظهار يد الله في الأمر . ويقول جماعة آخرون بل مات إذ نزل الى ماء النهر وكان شديد البرد ليستحم فيه عقيب تعب عظيم فمضى من ذلك وقضى المرض عليه .

سمع صلاح الدين أولا بالأخبار المريعة وهى اقتراب جيوش فردريك من بلاده عند وصولهم الى شرق آسيا الصغرى وبلاد الأرمن فاتخذ الحيلة وهو القائد الحذر، فأرسل جماعة كبيرة من أمراء جيشه ليرابطوا على منافذ الشام من الشمال، وحاول أن يهدئ الناس مما نالهم من الفزع لهذه الأخبار ولكنه حاول عبثا فبدءوا يخنزون الأقوات ويستعدون للشدائد ولكن ما لبث ان أنه أخبار الضعف الذى انتاب ذلك الجيش العظيم فتنفس الصعداء وفرح الناس بذلك وما زالت الأخبار تزد كل يوم بزيادة الضعف الى أن

عرف أخيرا أن فلول ذلك الجيش قد لجأت الى انطاكية وكانت البقية من الجيش العظيم ليست مما يحسب له حساب كبير .
وقد شعر الفرنج الذين حول عكا بنقص جنود صلاح الدين عند ما أرسل بعض أمرائه الى الشمال لحمايته من جيش (فردريك) فأحبوا أن ينتهزوا الفرصة وهاجموا الجهة التي نقصت جنودها نقضا كبيرا وهي مينة جيش صلاح الدين وكان عليها أخوه الملك العادل فدارت هناك معركة عظيمة تعرف باسمه وهي المعركة العادلية .

واستمر النضال أكثر النهار واشترك فيه المحصورون في المدينة فانهم خرجوا على الفرنج من ورائهم أثناء المعركة فتم النصر بذلك لصلاح الدين وقتل من الفرنج عدد عظيم يقدره المسلمون بنحو ثمانية آلاف فكان هذا النصر من جهة وأخبار ضعف الجيش الألماني وتشتته من جهة أخرى عاملين على فرح عام في جيش المسلمين زادت له الروح المعنوية في عكا مع أن الحصار كان قد أثر في رخائها تأثيرا كبيرا وهذه . الموقعة العادلية أكبر مواقع الدور الثاني للمحاصر ولكن اذا كان الفرنج قد لحقهم هذه الهزيمة فانهم احتفظوا بكثير من ثباتهم بقية الصيف ولا سيما وقد جاءتهم أولى مساعدات الصليبيين من غرب أوروبا بقيادة من يسميه العرب (الكند هري) أو (الكونت هري) وهو (هنرى دى شبنانيا)

قريب ملكى فرنسا وانجلترا فى آن واحد فما كاد صلاح الدين يفىق من الحلم المزيج بالخطر الذى كان يتهده من قبل الألمان من الشمال حتى أئته طلائع الامداد العظيم الذى أرسلته أوروبا مجتمعة .

وبدأ الحصار يشتد مرة أخرى بعد وصول هذه الإمدادات وجعل الفرنج يقذفون أسوار المدينة بالمجانيق بقوة لم يسبق عهد بها غير أن شجاعة المدينة لم تقل أمام هذه الهجمات العنيفة فقد كان (بهاء الدين قراقوش) و (حسام الدين أبو الهيجاء) بين العسكر يوقدون فيهم الشجاعة بأعمالها وقوتها، فكان المدافعون يخرجون بين حين وآخر فيوقعون بالمحاصرين وقعات ذات شأن بين أسر وقتل ونهب . وكان الزرقاؤون والنفاطون دائيين على الدفاع بالنيران بهمة تعادل همة المحاصرين فى قذف المدينة من الخارج .

وقد ظهرت شجاعة الجانبين جليا فى آخر ذلك الدور، وإذا كان لابد من التمييز بين الجانبين فلا بد من تمييز المحصورين لما بذلوه فى شدتهم من التفانى فى الدفاع والصبر وكان من الأفراد من يبذل جهدا خارقا للعادة فى أداء واجبه فكان بعضهم يعوم من المدينة مخترقا صفوف السفن الفرنجية الى أن ينفذ الى صلاح الدين فيحمل اليه الأخبار ويعود بعد ذلك يحمل ما يراد منه أن يحمله من رسائل أو من أموال يشدها حول جسمه ليمد بها المحاربين وإذا كان بين عامة

الأفراد أبطال لا يسميهم التاريخ فقد سمي التاريخ بطلا من عامة أهل
عكا ألى بلاء عظيما فى أثناء ذلك الدور حتى قضى نحبه وهو يؤدى
واجبه وذلك هو عيسى العوام . واشتد الحصار بعد ذلك اشتدادا أعظم
حتى صار التراسل غير ممكن إلا بالحمام الزاجل بين المدينة وجيش
صلاح الدين ولكن مع هذا أمكن السلطان أن ينفذ الى المدينة
بعض السفن بين حين وآخر محملة بالمؤن التى أصبحت المدينة فى أشد
الحاجة اليها — ولكن كان دخولها المدينة بعد مشقة عظيمة اذ كانت
قوة الفرنج فى البحر قد زادت بما انضم اليها من امداد أوروبا . ولعل
الذى كان يمكن سفن المسلمين من دخول المينا أنه كان هناك عند
مدخلها برج عظيم اسمه برج الذباب . بنى على الصخر يحرس الميناء ،
فاذا عبرته المراكب أمنت غائلة العدو . فلما رأى الفرنج قيمته
الحربية جعلوه همهم ودارت حوله معركة عظيمة بذل فيها الجانبان
مجهودا كبيرا ولكن الفرنج عجزوا عن أخذه . وفى أثناء حصار برج
الذباب وصلت بقية جيش الألمان بقيادة (المركيش) صاحب
صور و (دوق سوابيا) ابن ملك الألمان فزاد القتال شدة ، واستمر هذا
النضال بعد ذلك شهرين طويلين ظهرت فيهما نفس صلاح الدين
وشبابة رغم مرضه بحمى صفراوية . وقد نفشى المرض فى الجيش للوخم
الذى أصاب الهواء بقرب عكا من كثرة القتلى ، ولكن عزيمته

صلاح الدين كانت لا تفعل وقد نصحه ناصح مرة أن يترك الميدان لما فيه من الخطر ثم يعود اليه بعد ذلك فتذكر السلطان الحازم خطأه السابق اذ انصرف عن العدو في الدور الأول وقال لناصره « اذا كان لا بد من الموت فليكن فهو على وعلى أعدائي » .

ثم تمثل وقال "اقتلاني ومالكا واقتلا مالكا معي" .

وجعل صلاح الدين يحتال على عدوه بتدبير الكائن والهبوط عليه بين حين وآخر ولكن لم يجده ذلك وهجم الشتاء قبل أن يستطيع رفع الحصار عن المدينة . وهكذا اضطر أن ينصرف بقلب ثقل عن المدينة وجعل يصرف جنوده للراحة مدة الشتاء وهو يشعر بأن المدينة قد حان أجل تسليمها . وقبل الرحيل انتهز فرصة هياج البحر وذهب أكثر سفن الفرنج من تجاه ميناء عكا لاجئة الى الشاطئ فأدخل الى المدينة جماعة من الجنود والأمراء بدل من فيها ممن طال عليهم الدفاع واشتد التعب وأدخل معهم ما تيسر من المؤن والذخائر ولكن لم يكن الاقبال على دخول البلد كثيرا ولهذا لم يدخل من الأمراء والجنود عدد يعادل من خرج منها .

ولسوء حظ المدينة لم تستطع السفن الآتية من مصر بالمؤن أن تدخل اليها وذلك لشدة هياج البحر فغرقت وتكسرت وكان لذلك أثر كبير في نفوس من في المدينة وسيكون أثر هذا أعظم بعد

انقضاء الشتاء وعودة القتال واشتداد الحصار فإن المدينة ستدخل على الدور الثالث من الحصار وليس بها من المدافعين ولا من المؤن ما يقيمها أمام هجمات عدوها العنيفة .

٢٥ - الدور الثالث للحصار

مضى على حصار عكا صيفان وشتاءان وجاء الربيع من سنة ١١٩١ م و (سنة ٥٨٧ هـ) . فأخذت جيوش صلاح الدين تجتمع اليه من كل أنحاء الدولة كما بدأ الفرنج يحددون إغاراتهم على المدينة ويشددون حصارها .

ولكن المدينة في هذا الربيع لم تكن على مناعتها في الدورين السابقين إذ كانت الأقوات فيها قليلة وكان المدافعون عنها أقل عددا وحاسة ممن كان فيها من قبل . وقد زاد الأمر شدة على المدينة مجيء أسطول فرنسي وآخر انجليزي يحلان جنود فليب أوجست (الفرنسيس) وريكارد (الانكار) .

وقد جاء ريكارد متأخرا قليلا عن جيش الفرنسيين بعد أن أخذ في سبيله جزيرة قبرص وكان معه خمس وعشرون قطعة كبارا من السفن .

وقد اجتهد الفرنج منذ أول هذا الدور في طم الخندق الذى حول عكا ولكن أهل المدينة صبروا على المقاومة صبرا حميدا فكانت جماعاتهم يخرجون ما يلقى فى الخندق ويلقونه فى البحر تحت حراسة اخوانهم ويحدثون فى ذلك مع المشقة العظيمة . وكان صلاح الدين فى الوقت عينه يجد مشقة كبرى فى الهجوم على الفرنج لتحصنهم فى خنادقهم — ولهذا أمكن الفرنج أن يضيقوا الحصار على المدينة وصار من أشق الأمور ايصال شئ اليها من المؤونة .

ولكن لا بد من ذكر أحد البعثات البحرية التى أرسلها صلاح الدين إمدادا الى عكا وكان معها ستمائة وخمسون رجلا ومقدار عظيم من المؤن والأسلحة فان المهارة الحربية فى البحر التى امتاز بها الانجليز كانت أكبر مما عهدده جنود المسلمين من الفرنج فأحاط الانجليز بالسفن الاسلامية حتى كان لا مناص من استيلائهم عليها ولكن من فيها آثروا الموت فأهروا على جوانب السفن بالمعاول حتى ثقبوها وغرقت وغرق كل ما بها ومن بها وكان قائد هذه البعثة يعقوب الحلبي نذكره فخرا وإعجابا .

وقد بدأ ملك الانجليز بارسال الرسل الى السلطان منذ أول مجيئه يفاضه فى قواعد الصلح ولكن شروطه كانت أشد مما يقبله

السلطان . فان الضعف اذا كان قد دب في عكا فان دولة صلاح الدين كانت راسية الأساس متينة لا يستطيع مهاجم أن ينال منها شيئا ولهذا لم تتجج المفاوضات الأولى بل أصر السلطان على أن يظل على الحرب حتى يخضع له عدوه في النهاية .

ولم يخل هذا الدور الثالث من ظهور آيات جديدة تدل على ما كان عليه صلاح الدين من الخلق ولندكر قصة الرضيع مثلا لهذا وذلك أنه حدث في بعض اغارات المسلمين أن استولى مسلم على طفل رضيع ، فطار عقل الأم وراء ابنها وخرجت الى معسكر المسلمين حتى وصل أمرها الى السلطان . فلما وقفت أمامه وعرف قصتها بكى رحمة لها وأمر برد ابنها اليها فالتمس حتى وجد بعد أن كان قد بيع في السوق فدفع السلطان ثمنه الى المشتري وسلمه الى أمه وحملها على فرس وأعادها الى معسكر الفرنج .

على أن الفرنج وان زاد عددهم لم يكونوا على وفاق فقد كان فيهم رؤساء عدة كل منهم يحسد الآخر ويغار منه فكان هناك الملك القديم (جى دى لوسنيان) أو (كى) كما يسميه العرب وكان معهم المركيش صاحب صور وجاء بعد ذلك فليب وريكارد .

وكان أول من ثار من هؤلاء الرؤساء المركيش فانه هرب من صفوف اخوانه عائدا الى صور وهناك تنحى عن الميدان حتى قتل كما سندكر بعد .

وكان صلاح الدين في هذه المدة كثير الألم لما يراه من الضيق الذي أحاط بالمدينة حتى كان لا يأكل إلا قليلا لهماه وغمه . وبدأت ترد اليه رسائل من المدينة يشكو من فيها الضيق والشدة وذلك بعد نحو شهرين من بدء الحرب في هذا الدور اذ كان الفرنج قد نجحوا في أخذ الخنادق التي حول المدينة وعملوا تلا مستطيلا من التراب يحتمون وراءه، وجعلوا يقربون من أسوار المدينة حتى أصبحوا بجوارها ولم يقدر السلطان على مساعدة المدينة مساعدة كبرى مع محاولته ذلك بكل ما استطاع، فلم يجد من في المدينة بدا من مفاوضة الفرنج في التسليم بعد نحو ثلاثة أشهر من تجدد الحرب وكانت شروط الصلح أن تسلم المدينة للفرنج بما فيها من الآلات والعدد والمراكب وأن تدفع نظير الأسرى المسلمين مائتي ألف دينار وتطلق ألفا وخمسمائة فارس من مجاهيل الأسرى الفرنج ومائة فارس معينين وأن يرد صليب الصليبوت — وأن يخرج جميع من في المدينة سالمين بما معهم من الأقمشة المختصة بهم وذرائعهم ونساءهم ولكن تلك الشروط لم تنفذ كلها كما سيأتى .

وهكذا سلمت المدينة للفرنج في ١٢ يولييه سنة ١١٩١ م (١٧ جمادى الآخرة سنة ٥٨٧ هـ) بين حزن الجنود الواقفة في الخارج

وألم السلطان الذى كان أشد الناس شعورا بتلك الصدمة ، وتهليل الفرنج لما نالوا من نصر بعد عامين قضوهما فى حرب مهلكة عند أسوار تلك المدينة .

٢٦ — عدم انفاذ المعاهدة وقتل المسلمين بعكا

كان ميعاد بذل المال فداء الأسرى شهرين — فبعد أن سلمت المدينة كان هناك جانبان كل منهما يشك فى نية الآخر فالفرنج وقد أخذهم زهو النصر لا يريدون أن يسلموا شيئا من أسراهم حتى يتأكدوا من المال ، والمسلمون وقد وخزهم الانهزام يريدون ألا يزيدوا عدوهم قوة بالمال المشروط إلا اذا تأكدوا من أنهم يطلقون الأسرى المسلمين . وهكذا بدأ الصليبيون بالاحتياط فخبسوا المسلمين الذين فى عكا ممن يجب فداؤهم .

وأما المسلمون فبدءوا فى تحصيل المال وعرضوا أخيرا أن يسلموا منه النصف بشرط أن يضمن الداوية (فرسان المعبد أو التمپل) اطلاق الأسرى عند تمام دفع المال لأنهم كانوا أهل دين ومحافظة على العهد يعرفهم المسلمون بذلك . فأبى الداوية أن يضممنوا ، وقال الفرنج انهم يصرون على دفع المال كله ولهم بعد وصوله أن يطلقوا من شاءوا ويحفظوا من شاءوا . فشك صلاح الدين

في نيّتهم وأنهم يريدون وصول المال ليتقوّوا به ثم يطلقون الفقراء والصغار ويحتفظون بالأمرء والأغنياء ليصيّبوا من وراء ذلك غنما جديدا يتقوّون به ولهذا أبى أن يسلم المال الذي جمعه .

ثم استمر القتال بين الفريقين بعد أخذ الفرنج عكا وما كان أشد دهشة المسلمين عند ما رأوا بعد القتال جثث أسرى عكا وقد قتلهم الفرنج وكان عددهم نحو ثلاثة آلاف رجل وذلك في أغسطس سنة ١١٩١ م ولم يبق من الأسرى إلا الأمرء والأغنياء . وعلى ذلك لم يرسل السلطان المال ولا الأسرى الفرنج ولا الصليب .

وانا لا نقدر أن نشدد النكير في اللوم على الفرنج على ما أتوه ، فلا نستطيع أن ننسب ذلك الى التعصب والكراهة والحقد كما يذهب جماعة من المؤرّخين بل نرى ذلك نتيجة لسوء في التفاهم بين الجانبين في وقت كانت العداوة نائرة والنفوس متألّمة بعد قتال عنيف استمر سنتين عند أسوار المدينة وكان ذلك النصر بعد الهزائم المتكررة دافعا بطبيعة الأمر الى ارتكاب ذلك الشطط .

على أننا لا ننالك الإعجاب بصلاح الدين واعتداله وحكمه لنفسه اذ أرجع أسرى الفرنج الى دمشق سالمين مع شدّة غضبه وحنقه على من نقضوا العهد ولم يأخذهم بحريّة اخوانهم .

٢٧ - الحرب الأولى بعد أخذ عكا

قد كان لأخذ عكا أثر أدبي كبير فوق ما كان له من أثر مادي في تقوية الفرنج وتخذيل المسلمين فان الصليبيين ساروا بعد أخذها منتصرين وخشى المسلمون بأسهم فكانوا يفترسون في أكثر مواقع اللقاء ولولا ثبات صلاح الدين نفسه وأخيه العادل وبعض كبار الأمراء لكان الخطب أعظم - وكان قائد الفرنج بعد أخذ عكا في أكثر الوقت ريكارد وذلك لأن فليب ملك فرنسا عاد الى بلاده عقيب أخذ تلك المدينة ولعل من أسباب عودته ما كان بينه وبين ريكارد من الخلاف والمنافسة .

سار ريكارد الى الجنوب على رأس الجيوش الصليبية قاصداً أخذ بلاد الساحل ، ثم اذا اطمأن له ذلك نفذ الى الداخل ليستولى على بيت المقدس .

وسار صلاح الدين وأمراؤه بازائهم ولكن المسلمين كانوا يسبقون الى الجنوب مسرعين على حين كان الفرنج يترثون في سيرهم إما لانتظار المدد من وراء البحر وإما للخوف من الكائن . ولم يحدث قتال يستحق الذكر إلا عند أرسوف ١ سبتمبر سنة ١١٩١ م شعبان سنة ٥٨٧ هـ . وهناك انهزم المسلمون هزيمة كبرى ولولا ثبات

صلاح الدين في القلب مع جماعة قليلة ، ولولا أثره الشخصي في تحميس الجنود أو أشعارهم انجل من فرارهم لكانت موقعة أرسوف نكبة من أكبر نكبات هذه الحرب . ولم يستفد الفرنج من انتصارهم عند أرسوف اذ كانوا دائما يحسبون فرار المسلمين خديعة ويحسبونهم قد أكمئوا لهم الكمائن — و زاد فيهم هذا الاعتقاد عند ما رأوا في القلب جماعة ثابتة والكؤوس تضرب وسطها وهي الجماعة الملتفة حول السلطان .

ولما رأى صلاح الدين ضعف الحالة المعنوية في جيشه جمع أمراءه عتب الموقعة ليروا رأيا في الخطة اتى يجب اتباعها فقررروا أن يتركوا الساحل للفرنج ولا يحاولوا المرافعة في مدينة من مدنه . ولكنهم قرروا تخريب المدن الجنوبية القريبة من حدود مصر حتى لا يتحصن الفرنج بها اذا أخذوها فيكونوا خطرا على المواصلات بين مصر وبين ميدان الشام وتقرر البدء بتخريب عسقلان . وقد تألم صلاح الدين أكبر ألم لذلك اذ قال لأحد ثقاته « والله لأن أفقد أولادى بأسرهم أحب الى من أن أهدم منها حجرا واحدا ولكن اذا قضى الله ذلك لحفظ مصلحة المسلمين كان » .

وقد بدأ هدم المدينة بعد قليل وسط آلام الناس جميعا وكان صلاح الدين يسرع بتدميرها قبل أن يعلم الفرنج بأمرها خوف

أن يسرعوا إليها فيأخذوها قبل اتمام ذلك الغرض ويعيدوا حصونها فتكون لهم بها قوة ومنعة .

وكانت تلك الخطة في الحقيقة خير ما يمكن في تلك الظروف اذا نظرنا الى ما كانت عليه النفوس في جيش صلاح الدين بعد صدمتي عكا وأرسوف . وقد اتبع صلاح الدين خطة التدمير والهدم نفسها في اللد وقلعة الرملة وذهب في أثناء ذلك الى القدس يزيد من تحصينه وتجديد أسواره فكان غرضه ظاهرا من أعماله وهو أن يدع الساحل للفرنج ويقوى الداخل عالما أن أعداءه أفوياء قرب البحر وأن فرصته إنما تكون اذا هم بعدوا عنه متوغلين في الداخل .

واستولى الفرنج فعلا بعد قليل على كل مدن الساحل وحاولوا أن يعيدوا حصون عسقلان وسواها مما خربه السلطان وبدؤا يفكرون في غزو الداخل ولكن في هذه الأثناء دب خلاف جديد بين المراكيش (كتراد دى منفرات) وبين الانكشار (ريكارد) وجعلت رسل كل منهما تفد الى صلاح الدين أو الى أخيه الوديع الملك العادل تطلب الصلح ، وقد أدرك (ريكارد) أن الاستمرار في الحرب غير ممكن وأنه إن أحرز نصرا مرة أو مرتين فلن يقدر على طول النضال ولهذا أراد أن ينتهز فرصة ضعف الروح في الجيش

الاسلامى ليفوز بشروط رابحة — فكانت رسل المراكيش تأتى عارضة شروطا للصالح ورسل الانكثار تأتى عارضة شروطا أخرى كما يفعل المتنافسان وكان الملك العادل هو السفير فى المفاوضات فى أكثر الأحيان .

وكانت شروط المراكيش أن يكون له صيدا وبيروت على أن يكون حليفا للمسلمين ضد الفرنج .

ولكن صلاح الدين كان غير واثق من صدق نيته فاشترط عليه أن يبدأ بحرب الفرنج ومهاجمة عكا قبل أن يصالحه .

وأما شروط الانكثار فقد كانت الاستيلاء على القدس وإرجاع الصليب وأخذ البلاد التى بين نهر الأردن والساحل وأن يكون تحالف بين الدولة الاسلامية والصليبيين ويتزوج الملك العادل بأخت الانكثار ويكونا معا حاكمين على الدولة الجديدة بمقتضى المعاهدة ، ولكن تلك الشروط لم ترق أحدا من الجانبين .

والظاهر أن الجنود الاسلامية بدأت تسترجع قواها بعد شهرين من سقوط عكا وبدأت تقف ثابتة وتحرز بعض النصر فى مواقف الحرب وبدأ الانكثار يرى الحقيقة التى كان انتصار عكا أخفاها عن عينه وهى أنه ليس من الطبيعى أن ينتصر فى بلاد بينها وبين مقر دولته سفر طويل فى البحر ، ويكون النصر على قوم فى وسط .

بلادهم تتجدد قوتهم بعد حين اذا ضعفت وتأتى الى ميدان النضال . فيها كتاب تحل محل من قتل ومن أسر . ولهذا بدأت المفاوضات من جديد وكانت الشروط هذه المرة ألين وأهون . ومما يسترعى النظر أن المفاوضات بين الجانبيين كانت تتخللها فكاهات ومداعبات وهدايا ومجاملة فيحمل الملك العادل من طعام المسلمين وتحفهم الى الانكثار ويحمل الانكثار من طعام الانجليز وتحفهم . حتى اذا ما اجتمع الاثنان تجاذبا أطراف الحديث من سمر ودعابة وفكاهة . ينسى الانسان معها أن هذه مفاوضة في حرب مرة ثار لهيها طول . قرن لم ينخب ولم ينطفئ — حتى لقد نشأت شبه محبة بين العادل وريكارد واستمرت الى أن انتهى الأمر بالصلح أخيرا .

وكان صلاح الدين في أثناء كل هذا لا يرغب رغبة حقيقية . في الصلح على تلك الشروط فكان لا يرضى بدون خروج الفرنج من جميع البلاد ولكنه كان يرضى بدخول أخيه في المفاوضات لكي يضرب جانب المراكيش بجانب الانكثار ويحدث له من وراء ذلك الربح والفوز ولعله كان أميل الى المعاهدة مع المراكيش لأنه كان يرى أن شروطه أهون شرا وأنه اذا بقى في بلاد الساحل فلن يكون شديد الخطر بل يسهل طرده منها بعد حين . ولكن الأمراء رأوا أن الصلح مع الملك (الانكثار) أتم وأضمن للسلم لقوته وشجاعته .

وقد دخل شتاء سنة ١١٩١ بغير أن يتم صلح مع أحد الجانيين . فرجع صلاح الدين الى الداخل وعاد الانكثار الى عكا على أن المفاوضات لم تنقطع بين المسلمين وطائفتي المراكيش من جهة والانكثار من جهة أخرى . وقد أراد صلاح الدين أخيرا أن يبرم الأمر على ما يراه هو وأن يصالح المراكيش إذ رأى أن الصلح معه يضعف الفرنج فإذا تم له النصر أخيرا على الانكثار سهل عليه أمر المراكيش . ولكن ما لبث أن سمع بنبا قتل المراكيش في صور قتله اثنان من أصحابه على قول جماعة ويقول آخرون بل قتله اثنان من الفدائيين من طائفة الباطنية الاسماعيلية . ويعتقد الجميع أن قتله كان بدس من أعدائه ولكن هناك خلافا فتقول طائفة أنه قتل بايعاز صلاح الدين ويقول آخرون بل قتل بايعاز الانكثار ولكن مهما يكن من الأمر فإن صلاح الدين لم يدس على المراكيش من قتله وذلك لعدة أسباب يكفى أحدها أن يكون برهانا قاطعا . فإن صلاح الدين لم يكن رجل الدسيسة والغدر — حقا كان يجاهد ويحارب ولكنه كان يحارب في الميدان المفتوح واثقا من النصر إذ كان يرى الحق معه ولم تكن في حياته شبهة من غدر أو خيانة . وكذلك لم يكن صلاح الدين على وفاق مع الاسماعيلية بل أنه كان موتورا منهم لسابق اعتدائهم عليه . ولئن كان لصلاح الدين غرض

فى الغدر فكان الأولى به أن يغدر بعدوه الأكبر ريكارد وكانت فرص الغدر به كثيرة لو شاء وما كان أقرب إليه اذا كان رجل غدر أن يدس على (ريكارد) من يقتله أثناء اجتماعه بأخيه للمفاوضة أو يدس له السم فى الطعام الذى كان يأكله من يد المسلمين آمننا . وهل يهتم صلاح الدين وهو الرجل الذى كان يرسل لعدوه الدواء وهو مريض بأنه يدس على عدو آخر من يقتله .

وقد رأينا أن صلاح الدين كان أميل الى مصالحة المراكيش وانه كان يرى المصلحة فى الاتفاق معه ليكون مساعدا له على الصليبيين فكان من مصلحته أن يبقى حيا وليس أن يدس عليه من يقتله فى الوقت الذى كان قد استقر رأيه فيه على مصلحته وتفضيل التعاهد معه على مصالحة ملك الانجليز .

فيلوح لنا أن الحقيقة هى أن (ريكارد) صاحب الديسة كما أقر القاتلان نفساهما . وأن قتله كان على يد اثنين إما من المسيحيين المتحمسين وإما انه استأجر اثنين من الاسماعيلية وقد تنكرا فى زي المسيحيين لهذا الغرض . ومن السهل أن نتصور الباعث على قتله فان المراكيش كان فى نظر الصليبيين خائنا خارجا على الدين مواليا لأعداء المسيح نائرا على أوليائه .

٢٨ - الميدان الأخير

دخل ربيع سنة ١١٩٢ م - ٥٨٨ هـ فاجتمع الجنود المسلمون إلى صلاح الدين ولم يجتمع إلى ريكارد إلا فلول جيشه القديم وقد خبت ثورة النصر الذي أحرزوه في العام المنصرم إلا أنه كان لا يزال على عزمه في خطته الأولى وهي أن يدخل إلى بيت المقدس بعد الاستيلاء على الساحل الجنوبي فلما تم له أخذ الساحل في العام الماضي جعل غرضه من حرب هذا العام الاستيلاء على بيت المقدس فما زال يسير من منزلة إلى منزلة وجنود صلاح الدين بأزائه وكان السلطان قد حصن بيت المقدس وقسم أسوارها على أمرائه مصمما أنه لن يترك عدوه يستولى على تلك العاصمة كما استولى على عكا ولهذا أخذ أمر الدفاع عنها في يده . ووصل الفرنج أخيرا عند موضع اسمه بيت نوبه على مرحلة من بيت المقدس وهناك بدءوا يترددون ثم وقفوا . ولم يحدث في وقوفهم هناك أكثر من نهب قافلة عظيمة كانت آتية من مصر بالذخيرة ويقال إن عدد جمالها كان سبعة آلاف حمل فاستولى الفرنج على ثلث منها وتشتت منها ثلث في البرية ووصل الثلث الأخير إلى الكرك محتما بها .

ولكن هذه الخسارة لم توقع الرعب في قلب صلاح الدين بل زادته تصميمًا على الدفاع واعدادًا لعدته فبالغ في تحصين

بيت المقدس وأفسد الماء الذى فى ظاهر المدينة وكان فى هذه الأثناء شديد الوجد كثير الدعاء لله بالنجدة يتخلل دعاءه البكاء وما كان أشد دهشة المسلمين بعد هذا كله اذ سمعوا بعودة الفرنج الى الساحل . ولعل سبب رجوعهم ما سمعوه من استعداد صلاح الدين لهم وكان عدد جنودهم غير كاف لاتمام حصار المدينة من كل جانب لا سيما والمدينة يحيط بها واد منخفض من أكثر جهاتها، وهذا يدعو الى تشتيت القوة المحاصرة .

وكان الفرنج يخشون التشتت لعلمهم بأن المسلمين اذا هبطوا على جماعة وحدها قضوا عليها ثم عادوا الى الأخرى وهكذا .

وقد فرح المسلمون أشد فرح بعودة الفرنج عنهم وتشدت عزائمهم وبدأت أحاديث الصلح بعد ذلك تتردد وكانت شروط ملك الانجليز هذه المرة صالحة لأن تكون أساس المفاوضات . وهى أن يترك ريكارد البلاد الساحلية لابن أخته الكندهرى (الكونت هنرى دى شمانيا) على أن يكون تحت حكم صلاح الدين وأن يأخذ الفرنج كنيسة فى بيت المقدس .

فرضى صلاح الدين باعطاء كنيسة القيامة بالقدس وإبقاء مدن الساحل فى يد الفرنج إلا عسقلان وما وراءها فتكون خرابا ليست لأحد من الجانبين وأن تكون كل القلاع الجبلية للمسلمين وجعلت

المفاوضة تسير بين الطرفين سيرا مترددا طول مدة الصيف ويختلف الطرفان على تفاصيل قليلة الخطر .

وتخللها انقطاع وحرب وكان ميدان ذلك الحرب عند يافا . فأخذها صلاح الدين بعد حصار قصير . وكان ريكارد في هذه الأثناء ذاهبا الى الشمال نحو بيروت فلما سمع بحصارها عاد مسرعا اليها في البحر وهناك ظهرت شجاعته العظيمة التي كان لها أكبر أثر في نفوس المسلمين . فانه لم يكن معه إلا عدد قليل ولكنه مع ذلك استطاع تنحية القلعة وهرب من اسمه الجيش الكبير الذي كان في يافا . وقد تحدى ملك الانجليز في اليوم التالي كل جيش المسلمين آخذا رمحاً حاملا من طرف الميمنة الى طرف الميسرة فلم يتعرض أحد له حتى غضب صلاح الدين وأعرض عن القتال وانصرف عن يافا الى الرملة مع أن ريكارد لم يكن في أكثر من ثلاثمائة مقاتل .

وقد مرض ريكارد بعد ذلك مرضا شديدا واشتمى الكهوى والخواخوخ والتلج فكان صلاح الدين ينفذ اليه بما يطلب من ذلك . ولعل ذلك من أكبر ما يقوم دليلا على تقدير البطل للبطل ولو كان عدوه .

وعزم الجنود الفرنسيون عند ذلك على العودة الى بلادهم ليحققوا بملكهم الذي سبق رحيله فاشتدت رغبة ريكارد

في الصلح وكانت عقدة الاتفاق عسقلان فان ملك الانجليز كان مصرا على أخذها محافظة على كرامته في الصلح وكان صلاح الدين يأبأها عليه اباء شديدا خوفا على مصر منها ومحافظة على كرامته في الصلح أيضا اذ كان أخذها عنوانا للنصر في تلك الحرب التي لا يستطيع جانب فيها أن يدعى النصر غير مدافع .

وأخيرا تم الصلح صلاح الرملة في ٣ سبتمبر سنة ١١٩٢ (٢٢ شعبان سنة ٥٨٨) وحلف عليه من الفرنج جماعة الأمراء والملك الذي سيتخلف بالشام وهو (الكندهرى) ولم يحلف الملك (ريكارد) قائلا ان الملوك لا يحلفون ولكن كلمتهم تكفى . وحلف من المسلمين الملك العادل أخو صلاح الدين والملك الأفضل والملك الظاهر ابنه وجماعة من أمرائه الكبار وكانت شروط الصلح أن يحتفظ الفرنج بالساحل من عكا الى يافا وأن يسمح للحجاج أن يزوروا بيت المقدس وأن تحرب عسقلان ويكون الساحل من أولها الى الجنوب لصلاح الدين .

ودخل في ذلك الصلح أميرا طرابلس وأنطاكية على أن يحلفا للمسلمين فان لم يفعلا لم يدخل في الصلح .

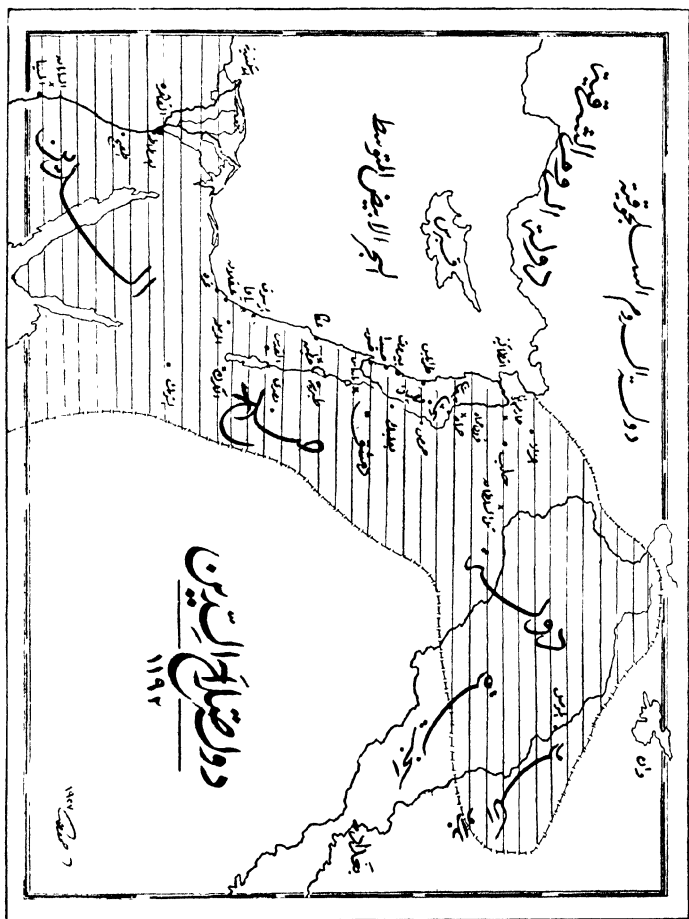
وهكذا تم الصلح ووفدت وفود الحجاج المتحمسين الى القدس فأكرمهم صلاح الدين إكراما عظيما وعاد ريكارد الى بلاده

وانصرفت الجنود الاسلامية عائدة الى اوطانها المختلفة بعد تلك الحرب الضروس التي لم يخب لهابها مدة قرن، فمات فيه من مات من الفرنج في سبيل غرض دفعتهم الى قصده حماسه غير موقفة. وساقهم الى تلك الحماسة جماعة كان أكثرهم يسرّ حسوا في ارتغاء^(١)، ومات من مات من المسلمين في دفاعهم المجيد عن اوطانهم يقودهم شيوخ من كرامهم رأوا ذلك الجهاد خير ما يقضى فيه عمر الأحياء. وما الحياة؟ أليست تلك الأنفاس التي تتردد في تلك الفترة المحتومة ما بين واجب الميلاد وواجب الموت؟ ألا أنها لفترة مملّة مسئمة اذا لم يكن بها ما يهز النفوس — ولئن كان هذا كذلك فلقد اختار مسلمو ذلك العهد ذلك الجهاد سلوة يقطعون عليها حياتهم ولقد كانت سلوة جديرة بكرام الرجال .

وأما عمل صلاح الدين في ذلك فانه قد جمع الدولة الاسلامية بين يديه وكانت عندما دخل الميدان لا تعدو عاصمتين من عواصم الشام والجزيرة وما بينهما من الأرض وكان ما عدا ذلك في يد الفرنج أو الفواطم .

فلما مات كانت دولة واحدة من الدجلة الى النوبة الى برقة وما زال بالفرنج حتى حصرهم على الساحل في الرقعة الضيقة بين

(١) مثل يضرب لمن يظهر أمرا ويخفى غيره .



خريطة دولة صلاح الدين

عكا ويافا . وإذا قلنا أن ذلك عمل صلاح الدين فما ذلك إلا لأنه لولاه لما تم ولظلت دولة الفرنج قوية بل لزادت قوة .

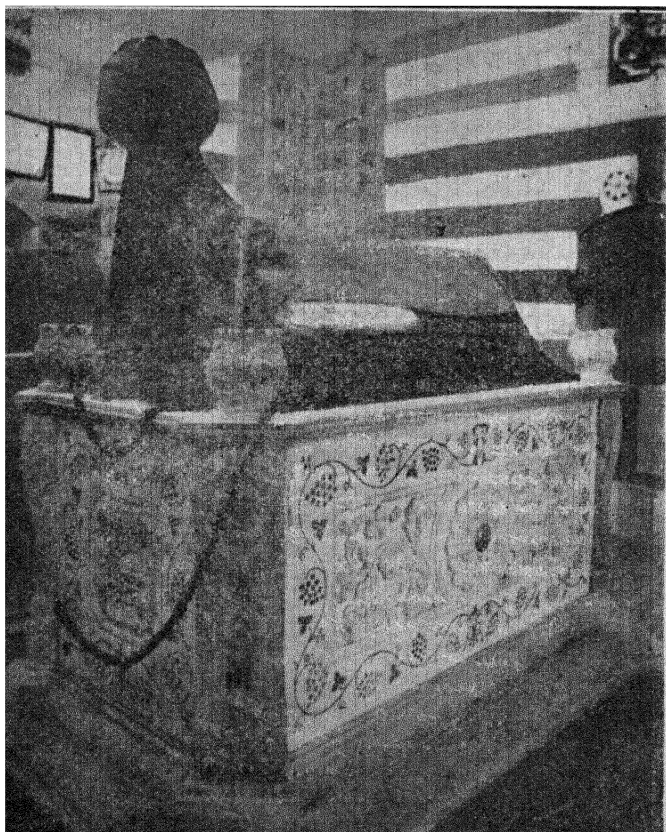
٢٩ - آخر حياة صلاح الدين

أقام صلاح الدين بالقدس حينما بعد الصلح لكي يصلح من أمرها على حسب سنته وأقام بها المدارس والمستشفيات ثم خلف بها صديقه القديم عز الدين جورديك وسار يتفقد أحوال البلاد الشمالية ويقابل الأمراء لا يفرق بين صاحب أنطاكية المسيحي وأصحاب نابلس وطبرية وصفد المسلمين . ثم دخل دمشق وكان دخوله اليها دخول المنصور الموفق . واستقبلته تلك المدينة المحبوبة استقبالا عظيما جمعت فيه تقدير عظمته وحب كرمه وخلقه العظيم وجاءت اليه وفود الناس من أهل دنيا وأهل دين واجتمع له الشعراء والأدباء يقصدونه بالمدح فكان وجوده بالمدينة سلسلة من الأعياد والأفراح . ووافاه هناك أخوه وأولاده وكان يقصد أن يعود الى مصر من هناك ولعله كان يقصد أن يجعلها مركز دولته الجديدة ويأخذ في تنظيمها واعلاء شأنها ولكن جماعة يقولون انه انما كان يقصد الراحة قليلا ثم يعود الى القتال في آسيا الصغرى وبلاد فارس . على أنه قد بقى في دمشق أطول مما كان عازما عليه في أول الأمر فقد كانت دمشق معهد صباه الأول وكانت

أحب البلاد اليه وقد استهواه فيها الصيد فخرج يقضى منه وطره وينعم بلذة الرجولة فيه . ويتفتج في أرض الظباء في سهوها مدة الشتاء وكان يجلس في أكثر أوقات الفراغ في وسط أولاده الصغار وأصدقائه المقربين وقد رفعت عنهم الكلفة وسادت المباشطة . وفي أثناء تلك الراحة حدث له كسل فكان لا يكثر من الخروج الى العمل الرسمي بل يؤثر البقاء في خلوته .

ولكنه لما رجع الحجاج خرج الى لقائهم وعند ذلك اجتمع الناس لرؤيته وكان في لباس بسيط ليس عليه درع ولا وقاء وكان يرغب في الج ولا يجد فرصة لذلك وسط حروبه ومشاغله فكان لذلك تأثره عظيما عند ما رأى المقبلين منه . ثم عاد بعد ذلك الى دمشق سائرا بين البساتين ليتجاشى الجموع الكثيرة المصطفة لرؤيته ولعل ذلك كان برأى الذين حوله اذ خشوا عليه من شر يحدث له في وسط الجموع وليس عليه ما يقيه .

ومرض بعد عودته الى دمشق بجى صفراوية وانتابه أرق شديد في الليل ولزم الفراش نحو أحد عشر يوما ومات في الثاني عشر من مرضه وكان ذلك في السابع والعشرين من صفر لعام تسع وثمانين وخمسة ووافق ذلك ٤ مارس سنة ١١٩٣ ميلادية .



صورة قبر صلاح الدين

وكان حزن الناس لموته لا يوصف فقد كان العامة يرون فيه السلطان العادل ، والجند يعرفونه القائد المنصور ، والقادة يعرفون فيه الرجل العظيم ، والعلماء يعرفون فيه التقوى والوداعة والايان ، والأدباء يذكرون ما نالهم من بره وتقديره لمواهبهم . فكان يوم موته مأتما عاما لامرأة فيه ولا مجاملة بل كانت موجة الحزن تجتاح البلاد قوية ثائرة . قال أحد كبار رجاله وهو القاضى بهاء الدين بن شداد «وبالله لقد كنت أسمع من بعض الناس أنهم يتمنون فداءه بنفوسهم فظننت هذا على ضرب من التجوز والترخص إلا فى ذلك اليوم فانى علمت من نفسى ومن غيرى أنه لو قبل الفداء لفدى بالنفس» وقد مات صلاح الدين عن نحو سبع وخمسين سنة بعد أن ملك مصر نحو أربع وعشرين سنة وملك الشام نحو تسع عشرة سنة وخلف سبعة عشر ولدا ذكرا وبنتا واحدة تزوجت فيما بعد بابن عمها الملك الكامل صاحب مصر وكان أكبر أولاده الذكور الملك الأفضل نور الدين على والذى يليه العزيز عثمان والثالث الظاهر .

٣ - كلمة عن الرجل

ما هى العظمة ؟ وما هو الرجل العظيم ؟ هذان سؤالان يصعب أن يجيب الانسان عليهما ولكن لا بد من أن يتلمس الانسان ذلك السر اذا أراد أن يدرك شيئا عن حقيقة صلاح الدين .

لقد كان في العالم عظماء كثيرون من رجال السيف ومن رجال الفكر وقد ترك هؤلاء آثارا في وقتهم وظلت آثارهم الى مابعد موتهم . ولكن المرء يدرك أنهم كانوا كبارا في الرجال فاذا ما حاول أن يعرف سر عظمتهم خانه البحث أو ضلله المنطق . حتى لقد قال الكثيرون أن العظمة سر خفي في المرء يرى أثره ولا يعرف كنهه .

ويكتفى هؤلاء بأن يفسروها بألفاظ غامضة اذ لا يقدرُونَ على تبسيطها . ولكننا نحاول بالاستقراء أن نقول في هذا الشأن كلمة نصوغها بأبسط لغة عالمين بوعورة ما نتجشم .

الجسم في نفسه وهو تلك المجموعة من اللحم والعظم وسائر المكونات ليس إلا آلة تطيع وأداة تنفذ ما يريده نظام أعلى وهو الروح وما يلحق به من مجموعة عصبية ولعلنا اذا أردنا معرفة سر عظمة الفرد لا نقدر أن نجد في الغلاف الخارجى بل لابد أن يكون في تلك المجموعة العصبية المسيطرة .

(١) كان كل عظماء الرجال ذوى أعصاب متينة — تحس فتؤدى إحساسها على أتم وجه وأدقه — ثم تحرك الجسم ما شاءت من حركات لا يتطرق اليها الخلل ولا يخرج عن سلطانها عضو من الأعضاء .

يتلقى العظماء من الصدمات أعظمها ويحسون بعظم الصدمة بل أن إحساسهم بها يكون في الغالب أكثر من إحساس عامة الناس ولكنهم لا يذهلون للصدمة ولو اشتدت — ومثل هذا ما نسمعه من نابليون إذ قال عن نفسه « كأن الاقدار كانت عالمة بما خبأته لى من صدمات فجعلت لى أعصابا من حديد » .

وقد كان إصلاح الدين قسط كبير من هذه الصفة فكان لا يذهل عند صدمة بل يحس بها ويقف ويحكم ويريد وينفذ في ثبات ودقة . ففى حصار عكا كان يرى العدو يزيد عدده يوما بعد يوم وهو يتخذ لكل طارئ عذته أو يحاول ذلك ولم يجزع ولم تخر عزيمته . وفى موقعة أرسوف وقف وحده فى وسط جمع قليل وقد انهزم جيشه وبقي على ثباته حتى بعث شيئا مما فى نفسه من قوة الجنان الى رجاله فثبتوا ومنع بذلك كارثة كادت تكون قاضية . وكما حدث أن بلغه نعى أبنائه أو أهله من أعز الناس عليه فيملك نفسه والحزن يحرق قلبه فاذا كان فى وليمة لا يفسدها بل يستمر على إحيائها الى أن تنتهى ثم يترك بعد ذلك العنان لنفسه الحساسة فيفيض جواها وحزنها بعد أن كبجها ماشاء . ولو شئنا أن نضاعف الأمثلة الدالة على ذلك لوجدنا فى كل يوم من حياتنا المليئة مثالا بل أمثالا .

(ب) هذا وقد نبيح لأنفسنا أن نستعير لغة ما وراء الطبيعة فنقول أن القوة العصبية نوع من القوة ولها كما يقولون أشعة ولعل تلك الأشعة تحدث في الخارج أثرا، ولعل هذا هو سر ما يشعر به الناس من هيبة ممزوجة باحترام وحب إذا هم اقتربوا من العظيم وما ذلك الشعور كما يقول أصحاب ما وراء الطبيعة إلا نتيجة تأثير نفس العظيم في نفوس من حوله وذلك شبيه بأثر المنوم في التنويم المغناطيسى . وقد كان عظماء الرجال جميعا متصفين بتلك الصفة فلا نسمع عن عظيم إلا ونعرف أن المتقرب إليه كان يشعر بشيء من الشعور القوي نحوه .

وقد قال من اقترب من صلاح الدين مثل هذا ومن ذلك ما حكاه عبد اللطيف البغدادى عنه إذ قال « ان المتقرب منه لا يستطيع إلا أن يحس بحب له ممزوج بهيبة ^(١) » .

(١) كان أمراؤه الكبار وماليكه الصغار إذا رأوا عينه واقعة عليهم وعرفوا أنه ينظر الى أعمالهم استماتوا في القيام بالواجب وبالغوا في إظهار ما في نفوسهم من شجاعة أو كرم . وما كان جزاؤهم الذى يتوقعونه من وراء كل ذلك إلا أن ينالوا من صلاح الدين ابتسامة الرضا أولا وأن تلحقهم هذه الأعمال بمرتبة في البطولة — وليس من المبالغة أن نقول أن لصلاح الدين فضلا كبيرا في تلك الشهامة التى ظهرت في المسلمين في ذلك العصر فان للقائد أثرا عظيما في نفوس رجاله فالناس هم الناس على وجه التقريب في كل وقت فاذا تولى أمرهم عظيم تساموا جميعا الى مستوى عظمته =

(ج) هذا عن تلك القوة المبهمة التي يمتاز بها الرجل العظيم .
ولكننا نقدر بعد ذلك أن نتكلم كلاما أقل إبهاما — فإن من أكبر
مميزات العظيم نظريته في الحياة الى نفسه والى الناس .

إن الطفل ينظر الى العالم نظرة سطحية فيرى كل ما فيها معقدا
منفصلا عن غيره غير مفهوم فاذا ما كبر أخذ يخرق السطح فيعرف
طبائع الأشياء فيقل تعقدها في نظره حتى اذا ما عرف العالم وخبره

= فأتوا بالعجيب واذا تولى أمرهم حقير النفس ضاع أمرهم وشملوا وبرزت الى
الأمم أدنى صفات الانسان وأحقرها .

فلنذكر ذلك الشاب الصانع الدمشقي الذي توصل الى اختراع وسيلة لاحتراق
آلات العدو بعد أن أعيت المسلمين الحيل في الدفاع عن أنفسهم أمامها — حتى اذا
ما حصر الى صلاح الدين وأظهر له هذا رضاء وعرض عليه الجزاء أبى الشاب ابا صادق
وقال أنه ما فعل ذلك الا اداء لواجبه وتقربا الى الله تعالى ... ولنذكر مملوكه الذي
رآه ناظرا اليه والجموع المسيحية الهائلة دونه فاندفع الى الموت وصعد صفوف الأعداء
صدعا كبيرا بنفسه وحده — وعلت بذلك المثل الصالح نفوس المحاربين فاندفعوا الى
تقليده والانتقام له .

ولنذكر أمراءه البجار وليس في الدولة ما يضمن خضوعهم لصلاح الدين من
قوة إذ كانوا جميعا شبه مستقلين وكان صلاح الدين في شغل من حروبه فلم نسمع بعد
سنة ١١٧٦ أن واحدا منهم خرج عليه لا بل لم نسمع أن واحدا منهم قصر عن أن
يكون مثالا عاليا في التضحية والايثار والاقدام بنفسه في مقدمة جنوده . لنذكر كل
ذلك ثم لنحكم على عظمة الرجل الذي كان قطب تلك الحوادث وجماع أمرها .

أمكنه أن يسند كل شيء الى أصوله وأن يرى الأمور بسيطة الى حدٍّ أكبر مما كان يراه من قبل . وهكذا الناس فمنهم الأبله الذى يأخذ العالم كما هو ويظن كل شيء وحدة قائمة بذاتها فيخيل اليه أن العالم مركب معقد على غير نظام ويليهِ من هو أكثر منه نباهة حتى الذكى الفهم فانه يرى العالم أبسط بكثير مما يراه الأقل فهما . فاذا ما بلغ الرجل الى مستوى العظمة أمكنه أن يخترق الحجب السطحية وأن يتغلغل الى الحقائق المجردة من التمويه والأعراض . ولهذا كان عطاء الرجال دائماً ممتازين ببساطة التفكير وبساطة الخطط وبساطة النظرة الى الحياة . فينظرون الى أنفسهم وإلى الناس أنهم جميعاً خلق متشابهون فى كثير ويختلف بعضهم عن بعض بحسب طباعهم لا بحسب الاصطلاح والوضع . وهكذا كان صلاح الدين بسيطاً فى كل شيء فى نظريته الى الحياة ، فى تفكيره ، فى سلوكه ، فى معاملاته ، فى حياته ، فى نظريته الى نفسه وإلى الناس .

كان لا يظهر بأنه سيد الدولة الاسلامية بل يقف أمام مرأته الكبار وأحقّر خدمه على السواء بصفته رجلاً أمام رجال لا يفرق بين أحد والآخر إلا بمقدار حظه من الرجولة ولعله كان واثقاً أو كان واثقاً بطبعه بغير تفكير، من أنه أقوى من كل من دونه من الرجال بغير حاجة الى أن يرتكز على مساعدة أهبة الملك وهيبة

السلطان . وكان أمراؤه مع ما يعطيهم من الحرية وما كان لهم في عصرهم ذاك من القوة والنفوذ، كانوا يتضاءلون أمامه ولا يحسر أحد أن يعصى إذا أمره، لا خوفا من قوته المادية ولكن طاعة لا بد منها لشخصه القوي .

فلم يكن يحترق على أمير جنودا بل يكلمه الكلمة الوديدة ثم يتركه فإذا هو خاضع ولو كان ممن لا يأسرهم الاحسان .

والى جانب هذا كان لا يرى فرقا كبيرا بينه وبين أقل خدمه بل يتجاوز ويحكم بطبعه بغير تكلف — فقد رمى أحد الخدم آخر بجذاء فتجاوز حتى وصل اليه هو فأدار وجهه للناحية الأخرى حتى لا يخرج ذلك الخادم . وكان اذا عرضت عليه القصص يزدحم الناس عليه حتى لقد يطأون طراحته وهو لا يتأثر^(١) .

وطلب في قضية خصما بفلس في مجلس القضاء ولم يتكبر مع أن الحق كان معه . وأراد مملوك مرة أن يوقع منه على ورقة

(١) ولقد ذكر أنه بعد انصرافه عن عكا وأخذ الفرنج لها ذهب الى الساحل لكي يدمر حصونه ، وكان هو فيمن يدمر تلك الحصون بنفسه يعمل كواحد من العمال فيحمل الأخشاب فوق كتفه وكذلك كان عند بناء حصون القدس يركب وينقل الحجارة بنفسه على دابته من الأمكنة البعيدة « فيقتدى به العسكر فكان يجمع عنده من العمالين في اليوم الواحد من يعملون قدر عدة أيام » .

فاعتذر له بالضعف وطلب اليه أن يؤجل ذلك فألح فقال له إن الدواة غير حاضرة فأشار المملوك الى دواة كانت على مسافة منه فنظر صلاح الدين فوجدها فقال ببساطة نحوها مرتكزا على يده حتى بلغها بمشقة ثم وقع له بما شاء ولم يرف في ذلك شيئا .

وكان اذا مرض أحد أتباعه أرسل يسأل عنه مرارا ولو كان هو نفسه مريضا . وكان كثير الوداعة في دائرة أسرته يجالس أولاده ويباسطهم ويضاحكهم لا سيما الصغار منهم وكان معروفا دائما بالعطف على كل ضعيف لا سيما الشيوخ والنساء والأطفال^(١) فلا غرابة لمن كان مثل ذلك اذا كانت طاعة الناس له طاعة طبيعية يغتصبها بشخصه القوي ، وتبذل له حبا بالطبع بغير تكلف .

(د) والرجل العظيم شديد الاحساس دائما ولو أن إحساسه لا يخرج أعماله عن إرادته وسيطرته — وكل ما يرد في سير العظماء يدل على أنهم كانوا من أشد الناس عاطفة . ولو أنهم كانوا يملكون ناصية تلك العواطف . وقد كان صلاح الدين شديد العاطفة يزيد

(١) ولم يكن هناك فرق في رحمته بين المسلم وغيره ومن الأمثلة الكثيرة على هذا قصة الرضيع التي وقعت في أثناء حصار عكا في الأيام الأخيرة التي ضاق فيها الحصار على المدينة وضاق صدر صلاح الدين فيها مما يجده المحصورون من البلاء ولكن نفسه ما كانت لتقسو ولو اشتد كربها .

به الفرح اذا لقي صديقا حتى يبكى ، ويزيد به الوجد اذا اهتم لأمر
حتى لا يأكل ولا ينام بل يقضى كل وقته فى عمل مستمر، ويملكه
السرور أحيانا فتهون عنده الدنيا وما بها وتهزه الأريحية فيهب كل
ماله ، وتستهويه ملاهى الرجولة فيقضى فى الصيد أيا ما يشعر بلذة
أى لذة فى أن يسرح بين المروج ويتردد فى وديان الفلاة الفسيحة ،
ثم يستثيره الطرب الحلال الى الجمال فيتهزل قول الشاعر إذ يقول
أمثال :

وزارنى طيف من أهوى على حذر من الوشاة وداعى الصبح قد هتفا
فكدت أوقظ من حولى به فرحا وكاد يهتك ستر الحب بى شغفا
ثم انتبهت وآمالى تخيل لى نيل المنى فاستحالت غبطتى أسفا
فالحق أن الذى لا تهزه العواطف الوثابة يكون أثقل مادة من
أن ينهض الى الآفاق العالية .

(هـ) هذا من جهة الشخصية ولكن الى جانب هذا يمتاز
العظيم دائما بقوة العقل والذكاء والواقع أن قوة العقل والذكاء
ماهى إلا نتيجة لازمة للقوة العصبية وقد كان صلاح الدين على أكبر
ما بلغه الانسان من قوة العقل . انه لم يكن عالما بالمعنى الأكبر
ولو أنه كان على شئ كثير من الاطلاع فى الحديث وشئ من الفقه
والأدب ولا سيما أنساب العرب ووقائعهم وسيرهم فنعرف مثلا أنه

قرأ فيما قرأ كتابا في الفقه من تصنيف الرازى ، وكان فى الصبح يقرأ بعد الصلاة شيئا من الحديث أو الفقه مع بعض الأشياخ مثل القاضى بهاء الدين بن شذاد . ولكن ذكاه القوى كان يسد ما فى علمه من نقص ولهذا كان أكبر مدرسى عصره يحسبون لعلمه حسابا اذا ما أحاطوا به فى مجلسه الحافل بكبار أهل العلم فى عصره . وكانت وجوه مناقشته ونقده تدل على مقدار فهمه واذا وصفناه بالفهم فانا نقصد بالطبع أنه كان من أهل السنة المتشددى فى مسألة العقيدة واذا كانت المغالاة فى ذلك عيبا فقد كان مغاليا فى التشدد ويعرف عنه أنه قتل جماعة ممن كان يشك فى صدق إيمانهم . ولعل روح العصر تشفع له اذا كان هناك من يميل الى مؤاخذته فى ذلك .

ولكن صلاح الدين كان رجل سياسة وحرب ولم يكن برجل العلم ولهذا كان ذكاؤه أظهر ما يكون فى أمور الدولة والحروب — فقد كان بعيد النظر يتوقع الأمر قبل حدوثه من أول بوادره وكثيرا ما كان رأيه فى أمور الدولة خيرا من رأى أجمع عليه أمراؤه كلهم . وكان فى إصلاح أمور بلاده يضع يده دائما على مواضع الخلل والضعف وكانت له قدرة عظيمة على القيام بتفاصيل الأمور فكان فى وقت واحد يدبر الحرب ويرسم الخطط ويرسل الى الأقاليم المختلفة التى فى دولته يرسم خطط الإصلاح الداخلى ويملى إرادته

في الادارة المحلية . ويقوم في أشاء هذا وذلك على مراقبة كل مايجرى في القضاء في بلاده على يد القضاة ، وما يجرى من الأمور في جيشه الكبير حتى لقد كان كل جندي يظن أن عين صلاح الدين واقعة عليه وكانت حماسة جنوده ناشئة من اعتقادهم أنه يعرف ما يعملون ويجازى الاحسان ويعاقب الاساءة على طريقته في الجزاء والعقاب .

(و) على أن صلاح الدين يمتاز فوق كل هذا بميزة قل أن توجد في غيره من العظماء فقد ذكر التاريخ كثيرين ممن جمعوا قوة الشخصية وقوة العقل وأحدثوا في العالم بهذه الميزات آثارا كبرى ولكن قل أن نجد من هؤلاء العظماء من كان في نفس الوقت عظيما وقديسا . بل ان كثيرا منهم كانت له سقطات في خلقه — إما من قسوة وإما من عدم تردد أمام الوسائل لبلوغ غاياتهم وإما من تجاوز الحدود الأخلاق الفاضلة — بل ان كثيرين من العظماء يرون الفضائل دون قدرهم ويظنون أنها قيود وضعت للدهماء الذين هم في مستوى دون مستواهم . ولكن صلاح الدين كان من القلائل الذين جمعوا الخلق الكريم والعقل القوى والشخصية المسيطرة .

فكان متدينا منذ أول حياته ولكنه كان مخطئا بعض الخطأ في صباه حتى اذا ما دخل ميدان العمل في أول رجولته ترك اللهو

وتاب عما حرمه الله . ولكن عقيدته لم يتدخل اليها خلل في وقت من أوقات حياته وكان حريصا على أن تكون عقيدة أبنائه قائمة على صخرة فكان يعلمهم بنفسه أول قواعد الدين .

وأما فروض الدين من الصلاة فكان مواظبا عليها ويصلي نوافل فوقها كثيرة ولم يترك الصلاة إلا عند ما اشتد عليه مرض الموت وتغيب ذهنه في الأيام الثلاثة الأخيرة . وكان يؤدى الزكاة عن ماله القليل ولو أنه لم يكن في وقت من حياته كثير المال لكرمه وكثرة نفقته في وجوه الخير . وليس أدل على ذلك من أنه لم يترك عند وفاته في خزائنه أكثر من سبعة وأربعين درهما وجرما واحدا ذهبيا ولم يخلف ملكا ولا عقارا ولا بستانا ولا قرية ولا مزرعة .

وأما الصوم فقد كان يشتد عليه ولا سيما في ميدان الحرب وأيام المرض وكان ضعيف الجسم فلهذا كان يتأخر عليه فوائت وحاول أن يقضيها بعد أن انتهى من حروبه ولكنه مات وعليه بعضها .

ولم يستطع الحج مع عزمه عليه وشدة شوقه إليه اذ لم يمهله الأجل بعد أن فرغ من الجهاد ليتم تلك الفريضة . ومن العجيب أن نعرف أنه في العام الوحيد الذي خلا من الجهاد في آخر حياته لم يستطع الحج « لخلو اليد عما يليق بأمثاله » .

وكان رقيق النفس يهتراه تازا شديدا لسماع القرآن والحديث وكان كثير الثقة بالله الى درجة قد يعدها البعض خرافة ولكن الحقيقة أن ثبات نفسه كان يدفعه الى الاطمئنان الى ما يجري به القضاء واثقا بأنه قد بذل ما في وسعه وأن الحيلة بعد ذلك في تصريف القضاء ليست في يده .

ولكن التدين وحده ليس كل ما اتصف به ذلك الرجل الفذ فقد كان خلقه مما يزين أبعد الناس عن الدين فيقر به الى نفوس المتدينين . فكان لا يرى الغاية تبرر الوسيلة ولهذا لم ينزل في جهاده مع حماسته وشدة إيمانه لقصده الى سلوك سبيل تأبأها المكارم — فلم يغدر مرة ولم يقل كلمة إلا وفي بها ولم يعد حتى يكون قصده الوفاء وكان في هذا يسوى بين صديقه وعدوه فكان يأبى مع أعدائه إلا أن يكون منازل شريفا — فلم تحفظ عليه هنة ولم يعرف عنه نقض لعهد ولا سعى دنىء في الخفاء وقد انتصر في حطين وفتح القدس نصرا عظيما فلم يبطره ذلك ولم يدر رأسه في دفع به الى انتقام أوقسوة بل تجلت شفقتة على الضعيف وبره بالوعد ورحمته بالانسان ولو كان من غير جنسه ودينه بل لو كان من أشد أعدائه . ولم يكن في نفسه حقد ولا حب انتقام . ويتجلى ذلك من وصيته لابنه إذ قال « وأحذرك من الدماء والدخول فيها فان الدم

لأينام — وأوصيك بحفظ قلوب الرعية والنظر في أحوالهم ...
ولا تحقد على أحد فان الموت لا يبقى على أحد واحذر ما بينك وبين
الناس فانه لا يغفر إلا برضاهم وأما ما بينك وبين الله فانه يغفره
بالتوبة اليه فانه كريم » وكان غضبه اذا غضب للكارم والشرف
فقتله لارناط الغادر صاحب الكرك لا يذمه أحد وايقاعه بشاور
الوزير المصرى لا يجد مؤرخ غبارا عليه إذ كان فى كل ذلك
غاضبا للشرف والرجولة والعهود . وكان عادلا عدالة لا قيد عليها
ولو كان على أهله ونفسه فكان يأخذ من أبناء إخوته وأبنائه ومن
نفسه اذا قام دليل على أن القانون يحكم عليهم أو عليه . على أن
كل ما يذكر عن مواقفه أمام القضاء يدل على أنه كان على الحق .
فكان اذا تبرأ أمام القانون مما طلبه خصمه تكرم على ذلك الخصم
فوهبه ما يسمح به كرمه علما منه أن ذلك الخصم ما اندفع
الى ما اندفع اليه من الخصومة الا لحاجة قامت به .

وكان كريما ينفق ما فى يده وأكثر مما فى يده فى سبيل الخير
والاحسان ولم يترك ميراثا من ذهب أو فضة أو ملك لهذا السبب .
ذلك وهو صاحب الدولة العظيمة التى البست فرعون وكسرى ذهبا ،
وجعلت لهما أهراما وإيوانا . فكان أحيانا يذكر المال قائلا ” يمكن
أن يكون فى الناس من ينظر الى المال كما ينظر الى التراب » ولعله
كان يريد بذلك نفسه .

وكان بعد كل ذلك حسن العشرة لطيف المعاملة طيب الفكاهة . وكان مجلسه طاهرا من الرجس لا يذكرون فيه الا خيرا اذ كان لا يحب أن يسمع الا خيرا . ولم يشتم أحدا ولم يعل صوته في تأنيب أحد من خدمة إلا مراجعة لطيفة ولو اشتد موجب التأنيب ومثل من ذلك ما حدث أيام مرضه وذلك أنه أدخل الحمام فوجد الماء حارا فطلب ماء باردا فأحضره الذي يخدمه فسقط من الماء شيء على الأرض فناله منه شيء فتألم له لضعفه ثم طلب الماء البارد أيضا فأحضر فلما قاربه سقطت الطاسة على الأرض فوقع الماء جميعه عليه فكاد يهلك فلم يزد على أن قال للغلام « ان كنت تريد قتلى فعرفنى » ثم سكت عنه .

وكان فى حياته الداخلية هادئا محبا محبوا - يودع أبناءه بأن يقبلهم ويمسح على رؤوسهم ، وكان يصحب أولاده وأخوته فى الصيد، وكان يداعب أبناءه الصغار ويعيش فى داخل بيته غير متكاف ، وكان يطلب أحيانا أكلا بسيطا كرز بلبن وأمثاله فى كل مع من حضر من رجاله الأخصاء وأولاده كما يفعل أى عامل من أوساط الناس .

على مثل هذا كان صلاح الدين فى حياته وقد خلا العالم بوفاته من نور أشرق عليه حينئذ إلا ذكرنا نردده عنه لعل فيه أسوة ومنار هدى .

(مطبعة دار الكتب المصرية ٥٠٨/١٩٢٧/٢٢٠٠)
